

آفاق ثقافية

الكتاب الشهري

52

2007



رسالة حول العميان

وحديث فيلسوف مع ماريشالة

تأليف: ديدرو

ترجمة: عبود كاسوحة



رسالة حـول العميــان

و

حديث فيلسوف مع الماريشالة

رسالة حول العميان

و

حديث فيلسوف مع الماريشالة

تأليف: ديدرو

ترجمة: عبود كاسوحة

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة — دمشق ٢٠٠٧

العنوان الأصلي للكتاب :

Letter sur les Aveugles

Entretient d'un Philosophe

Avec la Maréchale de...

Diderot

آفـاق ثقافيـة

العـدد (٥٢)

آب ٢٠٠٧

كلمة المترجم

«حضرت النملةَ الوفاةُ فاجتمع حواليها النمل. فقالت نادبتها: يرحمكِ الله. أمن بُرَّة مجرورة وآثار سفرة منثورة. . .

فقالت لهن: لاتجزعن. فقد دخرت عند الله دخيرة، من دخر مثلها كان جديراً بالجنة: وذلك أني لم أسفك دماً قط».

هذه الحكاية الموجزة، البهيَّة في فلسفتها وعمق مدلولها، من كتاب لأبي العلاء عنوانه «القائف» وضعه على ألسنة الحيوان، وقد ضاع، فبقيت آثار منه في أعمال من كتب عن أبي العلاء.

لامناص من أن نتذكَّر تلك الحكاية حين نقرأ في «رسالة حول العميان»، ما يقول ديدرو، عن سوندرسون، الأعمى الشهير، وأستاذ الرياضيات والهندسة في جامعة كمبريدج، حين حضرته الوفاة فقال للوزير هولمز الذي أتى يزوره: «فلا تغبطني، وأنا أموت، على العزاء في أني لم أسبِّب الغمَّ يوماً لأحد».

أليس ما يجعلنا نتساءل: كيف تلاقت عبقرية أبي العلاء المكفوف بعبقرية ديدرو وهو يتكلم عن العميان، رغم بعد الشقة

بينهما في الزمان والمكان ، حول نقطة بعينها ، وهي أنّ العزاء الأكبر للمرء ساعة الوفاة ، ثقتهُ في أنه لم يفعل سوى الخير : « . . لم أسفك دماً قط» « . . . لم أسبّب الغمّ يوماً لأحد» ؟

ويذكّرنا ديدرو ، وهو يرى شبه مستحيل على الأكمه أن يؤمن بالله ، بذلك العدد الكبير من الآيات التي تبرهن على وجود الخالق ، اعتماداً على حاسة البصر :

«ما أعظم أعمالك يارب ، كلّها بحكمة صنعت»

«قوموا فانظروا ، ما أجمل الرب»

«قل انظروا ماذا في السماوات والأرض . . »

«أفلم ينظروا إلى السماء . . »

« أفَلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . . »

وبعد ، أليس ثلاثة من الكبار في تاريخ الأدب العربي ، كانوا مكفوفين ، فاتهموا بإيمانهم ؟

١- بشار بن برد ، قتل بتهمة الزندقة .

٢- أبو العلاء : مايزال ، بعد ألف عام ، موضع أخذ ورد ، بل آثر الباحثون الذين درسوه بعمق (مثل طيب الذكر الأستاذ إلياس غالي) التستُّر على هذه النقطة أو عدم التوسُّع فيها .

٣- طه حسين ، الذي كاد يدفع حياته ثمناً للجهر بأفكاره ، فحبسها وظلّ يداري حتى آخر أيامه .

وأعود للتساؤل حول عبقرية ديدرو، وهو تساؤل لا يخفي زهواً وأنا أقدِّم للقارئ في بلادنا عملاً جديداً لهذا الرجل العظيم، الذي ما انفكَّ الاهتمام به في الغرب، دون معاصريه، يتبع خطاً بيانياً متصاعداً منذ ما يقارب المئة وخمسين عاماً.

عبود كاسوحة



مقدمة

جيل هادم

بقلم: جان فارلوت

إذا ما شئنا أن نفهم عقلية ديدرو في حدود عام ١٧٤٢ حين بدأ حياته كاتباً وفيلسوفاً، علينا أن نقيم اعتباراً للجو الذي تمَّ من خلاله تدرّب فكره، ذلك أن أشياء كثيرة قد تغيّرت منذ مولده، أما الأعوام الممتدة من ١٧٣٣ إلى ١٧٤٢ والتي انتقل أثناءها من سن العشرين حتى الثامنة والعشرين فكانت سنين حاسمة في تاريخ القرن الثامن عشر الفرنسي.

أعقب مرحلة الركود الاقتصادي انطلاق تجاري ومالي بدأ في حدود عام ١٧٣٠، فطفقت الأسعار الزراعية ترتفع، والبورجوازية الفرنسية تتحول، وقد اجتاحها شيئاً فشيئاً همُّ تنمية الإنتاج.

ونلحظ نتيجة أولى في وضع الكتّاب، فقد سعى ثلاثة منهم،

جاؤوا من منبت البورجوازية الصغيرة الريفية، إلى جعل الأدب مهنة لهم: الروائي والكاتب المسرحي لوساج، الذي عرفه ديدرو في أواخر حياته، والأب بريفو مؤلف رواية مانون ليسكو، وماريفو الذي شرعت مسرحياته ورواياته تطرح مشكلات اجتماعية، لكنّ الثلاثة معاً أعطوا جلّ ما عندهم قبل عام ١٧٣٥ فلم يقدموا شيئاً ذا بال من بعد، أما فولتير فكان يسلك آنذاك سلوك بورجوازي مستنير فيغتني من المضاربة والربّا وتموين الجيوش، ويزدري التوظيفات الحذرة والتقليدية. وإذا كان قد أبدع نمطاً لكاتب جديد، مستقل مادياً عن الجمهور الاجتماعي وعن الملك، فإنه لم يقطع البتة من علاقته بالبلاط.

في ذلك الحين ظهر إلى الوجود جيل جديد، فريق بحاله من الشَباب المتمردين، والذين هم أحياناً تحت حماية منْ سلكهم رهباناً وكهنة، يتعلّقون بالعلوم والفلسفة (بالمعنى اللامدرسي للكلمة)، تجتذ بهم الصحافة ويتدربون على هدم الآراء المسبقة (أو التعصّب). ويقارب ديدرو من بينهم بعض الذين يعودون للترصن فيما بعد، مثل كاردينال المستقبل دوبرني، والعقيد المقبل في الشرطة سارتين. أما الغالبية فهم من أبطال الاستقلال الفكري البسطاء، الذين رفضوا غالباً، مثلما رفض، أن يدخلوا السلك الكهنوتي أو أن يشغلوا وظيفة في الإدارة، مؤثرين تحصيل معيشتهم من تدريس الرياضيات. فقد افتتح واحد مثل لوغاي دوبريمونفال دروسه عام ١٧٣٨ وتميّز

باستخدام آلات للاستنباط والبرهنة. وتأثر ديدرو به. فكتب عام ١٧٤٠ شرحاً لـ **مبادئ الرياضيات** لدى نيوتن، وسوف يبدي اهتماماً في **رسالة حول العميان** بالآلات التي اخترعها الأعمى سوندرسون للعمليات الحسابية فيرسم أشكالها. أما عام ١٧٤٨ فسوف ينشر **مذكرات حول موضوعات مختلفة في الرياضيات**.

لقد التمَّ حول بريمونفال مجتمع صغير سابق للموسوعة، مشبع بتأثير فونتنيل، وسوف يصوِّر ديدرو عدداً من أنماطه الفريدة في رواية **جاك المؤمن بالقدر**[1]: فالأستاذ غوس، شريك بريمونفال، مثال للفوضوي الذي يبرِّر لا أخلاقيته بالعواطف. أما فورجريه دومونبرون، وهو ساقط آخر، وسكرتير سفارة سابق، فسوف يوقَف عام ١٧٤٨ بسبب روايته الفاحشة والهدَّامة: **مارغو المرقَّعة**، فيختار النفي إلى بروسيا ثم إلى روسيا. فهل أتيح لديدرو التعرّف على لاميتري الذي يكبره بثلاثة أعوام، والذي تخرَّج من كلية هاركور يوم دخوله هو إليها، لكنه ظلّ غائباً عن باريس حتى عام ١٧٤٢؟ لم يكن الطبيب المادي قد نشر آنذاك سوى مؤلفات طبية، ولا يبدو أن صلات ديدرو بالطب سابقة لعام ١٧٤٢. لقد التقيا بعدئذ على الأرجح، وذلك ما تنمّ عليه الإشارات الوِدّية التي يوردها لاميتري بشأن

(١) صدرت، من ترجمتنا، عن دار الحوار، في مطلع صيف ٢٠٠٠م.

«الطبيب ديدرو» (وهي عبارة إطراء من قِبَله) في كتابه **الإنسان الآلة** عام ١٧٤٨، وفي المقدمة العامة لمؤلفاته عام ١٧٥١.

كان من أصدقاء ديدرو أيضاً، توسان، ذو الأصل المتواضع جداً، والمؤلف المقبل لكتاب الآداب، وقد تعاون معه. هنالك أيضاً باكولار دارنو، الذي كان يحظى بحماية فولتير، والذي دخل سجن الباستيل عام ١٧٤١ من أجل باليه من تأليفه عنوانها **فن النكاح**. وهنالك أخيراً جان جاك روسو الذي يكبره بعام، والذي وصل إلى باريس عام ١٧٤٢ ثم رجع إليها عام ١٧٤٤ لإقامة طويلة، وكان آنذاك يهتم بالموسيقى، فأسهم في **الموسوعة** ضمن ذلك الفرع.

أما إذا أكملنا هذا الوسط بالوسط المسرحي ووسط المصوِّرين الشباب وفنانين آخرين، مثل النحات فيل، تشكَّلت لدينا فكرة عن ذلك الجيل لعام ١٧٣٥. فهم يعيشون حياة الكفاف (لم يتبلور مفهوم **البوهيمية** الرومنطيقي لإطلاقه على تلك الحقبة)، لكنهم ينمّون على غليان فكري مكثّف فيستجرّون على أنفسهم، بجرأة ريشتهم، متاعب متواترة. أما الخطر الأكبر فهو النفي المؤقت أو الدائم إلى ملجأ الفلاسفة الذي تحولت إليه بروسيا آنذاك في عهد فريدريك الثاني، صديق فولتير، الذي ارتقى العرش عام ١٧٤٠. وذلك ما سيتوجَّب فعله على كل من توسان وبريمونفال ومونبرون وباكولار ولاميتري.

* * *

إن الغليان الكبير الذي تميَّز به العقد الواقع بين عامي ١٧٤٠ و١٧٥٠ رافقه وفق تصوُّرنا تشوّش كبير. أما الوضوح فتبدّى بشكل طبيعي عبر الحركة المتقدمة لجيل الشباب الفلسفي وفعل ديدرو الشخصي.

لقد جرت في واقع الأمر، وبدءاً من ١٧٤٣ بشكل خاص، موجة أولى من الانقضاض على الايديولوجية الاقطاعية. إذ وصل إلى الحكومة بعد موت الكاردينال فلوري، رجال من أمثال دارجنسون وماشو، مستعدون لتشجيع النمو الاقتصادي ومساعدة الذين يكتبون ضد خصومهم. كما أن بعض النبلاء المتحررين، مثل ريشليو والماريشال دو ساكس، بسطوا حمايتهم على الفلاسفة الماديين الأكثر جرأة مثل لاميتري. وبدأت مقاهي باريس تشهد انطلاق مناقشات حماسية حادة.

كما بدأت بالظهور آنذاك المؤلَّفات الأولى لجيل يتوقّد ويمور. وكانت كلها تقريباً تنشر في الخفاء فتأتي تهريباً من هولندا، أو تظهر في فرنسا باسم ناشر مستعار(*). ذلك هو الفريق الأول الذي سيعمل الاضطهاد على تفتيته واستئصاله، والذي ينبغي أن نميزه عن الفريق الموسوعي. وليست مكانتهم التاريخية ضئيلة القيمة، لكنهم لم يأتوا في ساعة الحسم بل جاؤوا في ساعة الاستعدادات. فحركة عام ١٧٥٠ الكبرى كانت ستظل من دونهم مستحيلة، كما أن العديد منهم سوف يقوم بدور قاطع.

(*) جدول زمني بالمؤلفات الرئيسة: =

١٧٤٣ - موريلي	Morelly	بحث حول الفكر الإنساني
١٧٤٥ - لاميتري	La Metterie	التاريخ الطبيعي للروح
- ديدرو		بحث حول الفضل والفضيلة
- موريلي		بحث حول القلب الإنساني
١٧٤٦ - كونديلك	Condillac	بحث حول أصل المعارف الإنسانية
- دارجان	D'Argens	فلسفة الحس السليم
- فوفنارغ	Vauvenargues	مدخل لمعرفة الفكر الإنساني
- ديدرو		أفكار فلسفية
١٧٤٨ - لاميتري		الإنسان الآلة. الإنسان النبتة
- مابلي	Mably	حق أوروبا العام
- دومايه	De Maillet	تلياميد
- توسان	Toussaint	الآداب
١٧٤٩ - كونديلك		بحث في المنظومات
- بوفون	Bouffon	التاريخ الطبيعي. القسم الأول
- بريمونفال	Prémontval	مذكرات
- ديدرو		رسالة حول العميان
١٧٥٠ - لاميتري		تأملات حول أصل الحيوانات
- روسو	Rousseau	أقوال حول العلوم والفنون

//

دوهاميل د ومونسو Duhamel de Monceau بحث في زراعة الأراضي.

١٧٥١ - بومسان Baumann (Maupertuis) مقالة ارلنغن (موبرتوي)

- ميرابو	Mirabaud	مقالات
- موريلي		الأمير
- دوكلو	Duclos	تأملات في الآداب

جرت من قبل ١٧٥٠ لقاءات حاسمة بين كل من ديدرو وروسو وبين اثنين من الفلاسفة، وكانا حتى ذلك الحين مبعدَين عن باريس: الألماني غريم الذي وصل عام ١٧٤٨ فقام روسو بتعريفه بديدرو بعد ذلك بعام، والألماني الآخر الشاب دولباخ الذي جاء إلى باريس بعد صلح ايكس لاشابيل، وبدأ تعاونه مع فريق الموسوعة بدءاً من عام ١٧٥٠. فيسعنا إذن أن نؤرّخ أوائل الحوارات بين ديدرو ودولباخ، المادي الحازم والهجومي، مع نهاية عام١٧٤٩.

لكن أياً كانت خلافاتهم والفروق فيما بينهم، وسواء كانوا «عقلانيين» أكثر، مثل روسو وتوسان وفوفنارغ، الذين أولوا المسائل الأخلاقية أهمية أكبر مثل «الفضيلة» و «الانفعالات»، أو توقفوا عند الديسمية[1] (الآلهانية)، أم تمسّكوا بالمادية تمسكا جريئاً مثل لاميتري أو تصدّوا أخيراً مثل ديدرو لمحاربة الميتافيزياء في عقر دارها لإرساء أسس مادية صلبة ترتكز على العلوم والإنسان. وأياً كانت نوازعهم وميولهم، فقد أرغمهم الفلاسفة على التزام الصمت. لقد شكّلوا جميعاً كتلة متراصّة في وجه الخصم، للهجوم كانت أم للدفاع.

محرك من النخبة

في تلك الأثناء برز ديدرو على أنه الأفضل. وحاز على الاعتراف به محرّكاً رئيساً للكفاح.

أما الناشرون، وهم أناس عمليّون، فعثروا فيه بسرعة على ضالّتهم. فقد أظهرت بعض الأعمال التمهيدية في الترجمة أنه شغّيل هائل ومنظّم كبير: ترجم **المعجم الطبي** لجيمس ضمن فريق ضمّه وتوسان وإيدو. وذلك ما يفسّر تكليفه، والمتعاونين معه، منذ عام ١٧٤٥ بترجمة **السيكلوبيديا** الكبرى لإيفرايم شامبرز، وهي معجم شامل للفنون والعلوم. والمعلوم أنه تخلى عن ذلك المشروع، لآخر أكثر طموحاً بكثير، وأنه سينجز **موسوعة** فرنسية سوف تترك دمغة في تاريخ الفكر البشري. لكن من المهم أن نعلم أن ديدرو قد بدأ في الأعوام القليلة التي تفصل بين ظهور امتياز الموسوعة (٢١ كانون الثاني ١٧٤٦) وظهور بيان الموسوعة التمهيدي (تشرين ١٧٥٠)، بإرساء أسس عمل شخصي وجريء، وذلك خلافاً لما جرى به الاعتقاد، وبالاتفاق مع الناشرين.

بدأ يترجم بتصرّف كتاب شيفتسبوري **بحث في الفضيلة والجدارة**، مضيفاً إليه ملاحظات وحواشي شخصية جداً. وتولّى الناشر لوران ديران، وهو أحد ناشري قاموس جيمس ثم الموسوعة، طباعة كتابه **الأفكار الفلسفية** بالخفاء،

عام ١٧٤٦ . ثم نشر عام ١٧٤٨ **المجوهرات الواشية**، وهي رواية فاضحة ليست بذات قيمة كبرى. ثم طباعة **مذكرات حول مواضيع مختلفة من الرياضيات** وأخيراً في عام ١٧٤٩ **رسالة حول العميان لصالح الذين يبصرون**.

وكان من شأن هذا الكتاب الأخير أن جعله ضمن صف جماعة الصحفيين الذين أُوقفوا معاً، كمّاً لأفواه الرأي العام، الذي أبدى سخطه على معاهدة السلام المخزي، التي عقدت في ايكس لاشابيل مع بروسيا، وبسبب زيادة الضرائب. وفيما كان صديقه توسان، المطلوب القبض عليه، يغادر فرنسا إلى بروسيا، جرى توقيف ديدرو، الذي وشى به منذ زمن كاهن ابرشية سان ميدار، والذي كان تحت رقابة الشرطة، فاودع السجن في قلعة فنسين. ومن المسلّم به أن ناشري الموسوعة، برياسون ودافيد البِكْر ولوران دوران وعلى رأسهم لوبروتون، لو كانوا رجال أعمال فقط، لتركوا المتعاون معهم وشأنه في ورطته. لقد وضعوا مصالحهم التجارية نصب أعينهم وهم يطالبون بالإفراج عنه. فذلك الواقع لا ريب فيه. فأمّنوا له نظام سجن مخفّف مكّنه من استئناف عمله (وأن يدرس بشغف **التاريخ الطبيعي**، الذي ظهر لتوّه، من تأليف بوفون). غير أن أولئك البورجوازيين لم يفصلوا، في معرض وساطتهم، بين مصالحهم وبين الكفاح الإيديولوجي الذي كان كفاحهم أيضاً (على شرط أن يكون حذراً) وكانوا حريصين على التمسّك بديدرو لأنه المحرّك لذلك

الكفاح أيضاً، ولأنه، من بين جيل الشباب، ذاك الذي يتحلّى بسمعة راسخة في العالم الفلسفي.

يبدو إذن أن ديدرو قد اعترف، نزولاً عند نصائحهم، بنسبة المؤلفات المغفلة التي وُجِّه اللوم إليه بسببها، فوعد «بعدم نشر كل ما من شأنه أن يكون مخالفاً للدين والأخلاق». وخرج من سجن فنسين، بموجب ذلك الوعد المغتصب في ٣ تشرين الثاني، من غير أن يفقد الشجاعة، بل عازماً على أن يلعب من الآن فصاعداً مع خصومه لعبة فائقة الذكاء تجعله في مأمن من السجن ومن النفي.

لقد كرّس نفسه للموسوعة تكريساً كاملاً، فأمّن له عمله مرتباً منتظماً: عليه أن يعيل زوجته ومايتنظر من أطفال (رزق حتى عام ١٧٥٠ بثلاثة توفوا في سن مبكرة). إلا أنه نشر أيضاً مؤلفاً خاصاً، **رسالة حول الصم والبكم لصالح الذين يسمعون وينطقون**؛ من غير أن يجلب له أية متاعب.

لكن العواصف الأولى ما لبثت أن هبّت وقد أفلتتها الموسوعة من عقالها، وأولها قضية «دوبْراد».

كانت قضية دوبْراد معركة الفلاسفة الأولى والظافرة. فقد شغفت الرأي العام بشكل عميق وزلزلت أركان السوربون، وهو القلعة الحصينة للتقاليد الدينية. كان الأب دوبراد قد تجاوز الخامسة والعشرين بقليل عام ١٧٥١. وكان وصديقاه الأب ايفون والأب

رينال يألفون الموسوعيين، ويصادقون بشكل خاص توسان وديدرو. ولقد قدّم للسوربون أطروحة دافع عنها في تشرين الأول عام١٧٥١، مستلهماً فيها بيان الموسوعة التمهيدي، بالإضافة إلى كتاب **تلياميد** من تأليف دومايبه، ومؤلفات بوفون الأولى، وكتاب ديدرو **الأفكار الفلسفية**. وتنقل الأطروحة بألفاظ وتعابير توراتية ومسيحية العديد من مواقف الفلاسفة. وتَعْتَبِر حِسَّوية[1] كوندياك حقيقة قائمة. ومن بعد أن حظيت بالموافقة، قام لمهاجمتها بعض اليسوعيين الذين اشتمُّوا فيها رائحة الموسوعة، ثم تصدى لها الجنسينيون[2]، الذين استغلوها ليسلّطوا سهامهم على السوربون، معقل اليسوعيين أعدائهم الألدّاء. وطلب البرلمان، الواقع تحت تأثير الجنسينيين، إلى السوربون أن يتراجع عن قراره. وفي ٢٧ كانون الثاني ١٧٥٢ وبعد، تردّد دام خمسة أسابيع، صدرت عن السوربون إدانة علنية للأطروحة، واعتراف بعدم تمييز ما تضمنته من ضرر والإعلان عن أنها نتيجة مؤامرة مدبّرة. كما أدان الحسَّوية إدانة خاصة ومعها أفكار دوبراد السياسية.

غير أن المجلد الثاني من الموسوعة كان قد صدر في ٢٥ كانون الثاني، حاملاً تهنئة للأب دوبراد، كاتب مقال «اليقين» فحصل اليسوعيون على أمر من الحكومة بإلغاء المجلّدين الأولّين كما أصدر

(١) مذهب فلسفي يقول إن جميع الفكرات ناشئة من الإحساسات.

(٢) اتباع مذهب مسيحي متشدّد.

البرلمان مرسوماً بإلقاء القبض على دوبراد. ومن حسن الحظ أن الوزير دارجنسون نفسه قد خبأه عنده ثم أمّن له الانتقال إلى هولندا مع الأب إيفون.

غير أن رغبة الجنسينيين تمثّلت في سعيهم لاستغلال فوزهم على السوربون وعلى اليسوعيين، الذين كانوا يظهرون شيئاً من التساهل حيال الأفكار الجديدة (الواقع أن ديدرو استخدم صِيَغَهم كثيراً لعرض أفكاره في الموسوعة). فصدرت عن اسقف أوسير العجوز، المطران كايلوس، رسالة رعوية تؤكّد مجدداً طروحات الجنسينيين حيال تيارات العصر الدينية والفلسفية: لقد هاجم كايلوس الحسّوية، والعلم، والمفاهيم الجديدة حول الإنسان والطبيعة، والأهمية العظمى التي أُسبغت على العقل، وهاجم مونتسكيو وبوفون والموسوعة. ومن الطبيعي أن يشن ذلك الهجوم كله باسم القديس أوغسطينوس، الذي يعتبر معلم الفكر الأكبر لدى الجنسينيين.

غير أن ذلك الانقسام الذي ازداد رسوخاً على ذلك النحو بين فرقاء الحزب الديني منح الفلاسفة الفرصة للرد والظهور أمام الرأي العام بمظهر المنتصر. وفيما كان دوبراد يُعِد في هولندا، بدعم من إيفون، دفاعاً عن جزأين، ظهر في شهر تشرين الأول (توجّه دوبراد من بعد ليقيم في برلين)، كتب ديدر وجزءاً ثالثاً أو «**ملحق بدفاع الأب دوبراد**»، فنشره قبل ذلك بقليل. ويشن فيه هجوماً شديداً

على الجنسينين، غير أنه لا يوفّر اليسوعيين. ويستخلص من القضية كافة النتائج التي جاءت لصالح الفلسفة. ويبرهن على أن المراد ليس مجرّد نزاع لاهوتي تافه، بل هو مستقبل العلوم وبالتالي مصير الموسوعة.

وجاءت النتيجة انتصاراً. فظل الخصوم على قناعة راسخة بوجود مؤامرة، لكن تضامن الموسوعيين وقوتهم الإيديولوجية جرى إثباتهما إثباتاً حاسماً.

ذلك التأريخ إذن ذو أهمية تاريخية. وتزداد أهميته أكثر بالنسبة لحياة ديدرو وأعماله. فسوف يقوم فكره عما قريب، بفضل العمل المستمر الذي انصرف إليه، بقطع خطوة حاسمة مع كتاب **الأفكار حول تأويل الطبيعة**، لكن هذا العمل لا يقبل المقاربة مع المؤلفات السابقة، بل ينبغي التقريب بينه وبين مقالات الموسوعة، وما كتب في المرحلة الممتدة حتى عام ١٧٧٠. فالمؤلفات الأساسية الثلاثة في المرحلة الأولى هي: **الأفكار الفلسفية، ورسالة حول العميان، وملحق بدفاع الأب دوبراد**.

تكوين فيلسوف

إن ديدرو الذي بدأ حياته المهنية بترجمات عن الإنكليزية، قال إنه تعلّم تلك اللغة عن طريق اللاتينية، ولنا الحق في الافتراض بأن ذلك كان في مؤلّفات باكون الشهير (لم يعرف هوبس قبل عام ١٧٦٥). إلا أن ثقافته الإنكليزية تمتدُّ على كل حال لتشمل

مؤلفات ثانوية، حتى لنرى أن حقيقة الملاحظات الذكية التي ساقها ماركس، تتأكد ضمن سيرورة تكوُّن الفكر نفسها:

> . . . هنالك نزعتان للمادية الفرنسية: تعود الأولى بأصلها إلى ديكارت، والأخرى إلى لوك. والثانية هي بامتياز عنصر فرنسي من الحضارة فتنتهي إلى الاشتراكية على نحو مباشر. أما الأخرى التي هي المادية الميكانيكية، فتصبّ في علم الطبيعة الفرنسي بحصر المعنى. والنزعتان تتقاطعان في معرض تطورهما.

ونقع على مآل الديكارتية العلمية في الازدهار العالي لعلوم الطبيعة، الذي نشهده في فرنسا بدءاً من عام ١٧٣٠ بشكل خاص، وصلته بالنمو المتسارع للانتاج. إن فونتنيل الديكارتي الذي ينتمي إليه جيل الشباب هو مؤلف المدائح الأكاديمية التي يلخص فيها، من غير عناء، ذلك الرجل العجوز (الذي مات عام ١٧٥١ بعد أن بلغ المئة من العمر)، مآثر العلم. أما فولتير الذي يحسب حسابه بالنسبة للشباب، فهو المبسِّط لأفكار نيوتن، وهو صاحب التجارب الذي خصص قسماً من وقته للفيزياء طيلة الأعوام الخمسة عشر التي أمضاها بين ١٧٣٥ و ١٧٤٩ في قصر سيري، لدى المركيزة دو شاتليه.

وبينما تزدان الرياضيات بأسماء كليرو وموبرتوي ودالامبير الذي يتولى إدارة الموسوعة إلى جانب ديدرو، كانت الفيزياء والتاريخ الطبيعي يزدهران فينمو تأثيرهما. وإذا ما نظرنا إلى قاعدة تلك

الحركة، وجدنا الاقتصاد والزراعة على نحو خاص في اندفاعهما إلى الأمام. فالمالكون العقاريون يسعون إلى زيادة مردود أراضيهم وإلى تحسين تقنية تربية المواشي. أما الاهتمام بـ«الطبيعة» الذي سيغدو بعد عام ١٧٥٠ محرِّضاً على النظريات الاقتصادية والفيزيواقراطية[1]، والذي سوف يغني الحساسية الأدبية بمواضيع إثراء مستقبلية، فيفسَّر منذ تلك الحقبة شهرة تجارب ريومير. فقد أشرك هذا العالم العلم النظري والعلم التطبيقي إشراكاً دائماً، ساعياً، على سبيل المثال، للبحث عن وسائل حماية من الحشرات الضارة. وكان مهندساً في الوقت ذاته، فقام باكتشافات تهدف إلى صنع الحديد الأبيض والفولاذ والبورسلان. وعمد بعد قليل علماء طبيعة آخرون إلى دحض النظريات التي وضعها السويدي ليني عام ١٧٣٥. لقد أثبت جوسيو وأدانسون أنّ الأنواع ليست مفصولة فيما بينها بحواجز عازلة. لكن ذا الاسم الكبير هو بوفون، وكيل حديقة الملك (حديقة النباتات اليوم)، والمالك الكبير للغابات أيضاً وصاحب مصاهر الحديد في مونبار بمقاطعة بورغونيا. إن بوفون هو النموذج لإنسان جديد، فلديه رأس المال وهو التقني والعالم والكاتب. لقد اكتشف طرائق جديدة في الاستثمار فطبَّقها، وصاغ فأدار نوعاً من الـ Brain Trust لجنة خبراء)[2] سواء لتحرير مؤلّفه الكبير التاريخ الطبيعي أو

(١) الفيزيوقراطية: مذهب الاقتصاديين الذين يعتبرون الزراعة مصدر الثروة الوحيد.

(٢) التعبير بالإنكليزية، ويعني مجموعة استشارية من الخبراء المعنيين بوجه خاص بالتخطيط، دون صفة رسمية. م.

لأبحاثه: سوف يقوم أيضاً معاونه دوبنتون دومونبار بإدخال الخروف مرينوس(١) إلى الأراضي البور الناشئة عن القطع المكثّف للغابات لتزويد مصاهر الحديد بالوقود.

وبدأت المراقبة المجهرية في تلك المرحلة تحقق إنجازات سريعة:

إن **ملاحظات** تريمبلي حول مديخ المياه العذبة التي تتكاثر بالقطع، وقد حمل ريومير تلك الملاحظات إلى أكاديمية العلوم عام ١٧٤١، أحدثت دوياً عظيماً. وظهر عالم الميكروبات إلى الوجود، ولم يكن معروفاً معرفة كافية، فأدى إلى ظهور نظريات جريئة حول علم الوراثة والفيزيولوجيا الحيوانية. فكان الدعم يميل تارة شطر التوالد الذاتي (الذي تستهدف استبداله «الجزيئاتُ العضوية» لبوفون) وتارة أخرى التكوين المسبق للجراثيم ودمجها، أو في البويضات المتلاحقة (نظرية البويضيين)، أو في الحوينات المنوية أو الدويبات المجهرية (نظرية الدويبات) إن هاتين النظريتين الأخيرتين تريان أنّ «الظهر»(٢) لدى آدم وحواء قد تضمَّن كافة الجراثيم (الأصول) للكائنات البشرية اللاحقة. ومن هنا نرى إلى أي حد كانت النظريات وتفسيرات المكتشفات خاضعة للسيطرة في علاقاتها بتأكيدات العقيدة الدينية. فهنالك نزاع دائم، منذ غاليله، ما بين نتائج

---

(١) ضأن بني مريّن. وهو نوع أدخله المرينيون العرب إلى إسبانيا، ويمتاز بنعومة صوفه. م

(٢) أي الصلْب.

العلوم وبين التفسير المسيحي للطبيعة. فيما يسعى علماء متمسكون بالدين إلى إقامة توافق بينهما قدْر المستطاع. وفيما يرتمي على تلك النتائج، وبتشكّك أدنى، كل من الميتافيزيائيين وأساتذة الفلسفة الرسمية، سعياً منهم وراء الادعاء بالخروج بإثباتات وبراهين على الدين، يكتب الأب بوليش في مجلداته التسعة التي تحمل اسم **مشهد الطبيعة**، والتي نشرت بنجاح بدءاً من عام ١٧٣٢، باسطاً البرهان على وجود الخالق استناداً إلى كمالات الطبيعة «ومعجزاتها» ونظامها. وسوف يُكْتَب بليش شعراً في عام ١٧٤٩ من أجل مدارس ديلار. أما «البرهان» الذي كان دارجاً بعد عام ١٧٤٠ فيتم انطلاقاً من عجائب الحشرات.

إن ما تقدم باجمعه: تطور الفلسفة وتقدم العلم وتزويد النتائج، سوف يتيح لنا أن نفهم مسيرة الفكر لدى ديدرو. ولما كان لا يستطيع الاكتفاء بالآلية الديكارتية، وكان يعي أنه ينتمي قبل كل شيء لِ «التنظيم» في ظواهر الطبيعة، فإنه لم يتخلّ على الفور عن التفسير الغائي للعالم. غير أنه وهو يقلب التفسير المثالي تحديداً، سوف يؤسس ماديته على مادة تنزع إلى التنظيم.

* * *

بدأ ديدرو مع كتابه **الأفكار الفلسفية** بتوجيه اهتمامه نحو الطبيعة. وسوف يمضي في تعميق فكره، ضمن هذا الدرب، وعبر تواصل حميم مع العلوم.

لقد ألِف الرياضيات فتعودّ عليها منذ زمن طويل. وتوصّل مستنداً إليها إلى حل مسألة المصادفة في عالم الفيزياء. إن الفكرة التي تحمل رقم ٢١ تدحض حجة الخَلْقيين الذين اعتمدوا على حساب الاحتمالات ليثبتوا أن خلق العالم ليس نتيجة المصادفة بل يفترض وجود خالق. فتقدَّم ديدرو بالفكرة المبتكرة القائلة بتطور العالم ضمن الزمان، وأنه مرَّ عبر سلسلة من الأشكال المتلاحقة.

لقد ظهرت هذه البرهنة في رسالة حول العميان:

كم من العوالم المشوّهة والمنقوصة تشتّت لتتشكّل وتتبعثر، وربما في كل لحظة ضمن فضاءات مترامية، ضمن فضاءات مترامية الأطراف، لا أستطيع لمسها أبداً ولا أنتم ترونها. لكن الحركة فيها متواصلة وسوف تواصل التنسيق بين كميات هائلة من المواد حتى الحصول على تسوية ما، تستطيع الاستمرار فيها؟

إن هذا العالم الساعي نحو التنظيم يجد تفسيراً له عبر الحركة، وعبر الواقع الأساسي بأن «المادة تتحولّ منذ الأزل» (الفكرة الفلسفية رقم ٢١)، وهذه حقيقة «بسيطة» من حقائق المادية. لكن هذا المبدأ يظل لدى ديدرو مسلّمة، يجادل فيها الآلهانيون مثل فولتير، الذي تفترض الحركة بالنسبة له وجود «محركٌ» رباني، مما يرجع الغائيّة. ولا يبقى سوى ديالكتيك هيغل ليتجاوز التناقض فيقول، إذا ما التزمنا بصيغة إنغلز:

> نحن نعرف عبر التجربة وعبر النظرية أننا لا نستطيع من بعد، خلق المادة، أو صيغة وجودها، أي الحركة. وأنهما بالتالي العلة النهائية الخاصة بهما.

إن إدخال ديدرو لمفهوم المصير في التاريخ الفيزيائي للكون، قد مضى به دون شك نحو القيام بالمسعى نفسه في العلوم الطبيعية. فكان من شأن إلغاء الغائية أن يقود إلى نظرية من نمط تحويلي والتي صاغ أحد أوائلها: لقد استشعرها بوفون، لكنه رفضها فيما هو يعرضها واستبعد الإنسان من نظامه. ولمحها كل من دومابيه ولاميتري، لكن الأولُ متخيِّلاً غامضاً والثاني بطريقة آلية جداً. إلا أن ديدرو قد شرع، بدءاً من رسالة حول العميان، برسم الخطوط الأولى لسيرورة التكوُّن رسماً ذكياً، ثم التكيّف مع المحيط وانتقاء الكائنات المتعضيَّة. وأشار إلى وجود استبدال نوعٍ من الكائنات الحية بنوع آخر، وبيّن أن الإنسان خاضع كالآخرين للشروط نفسها. وقد عرض تلك الأفكار بصورة مضخمة أكثر وحاسمة في حلم دالامبير وسوف يكملها أيضاً في كتابه **عناصر الفيزيولوجيا**.

لكنه تناول من قبل جزءاً منها في مقالة «الحيوان»[1] في الموسوعة.

ويؤمِّن تغطية لنفسه بسلطة بوفون لكي يعرض «سلسلة الكائنات» التي تنحدر دركات غير محسوسة من الإنسان إلى النبات، وإلى المديخ بل حتى إلى المعدن:

---

(١) الكائن الحي.

الكون آلة واحدة وفريدة، حيث كل شيء متصل،

وحيث الكائنات ترتفع بعضها فوق البعض الآخر أو

تنخفض بعضها تحت البعض الآخر بدرجات غير

ملموسة، على نحو لا يجعل من فراغ داخل السلسلة.

إن المظهر الذي لا يزال ميكانيكياً لتلك الرؤية للعالم، ليشاهد حين نقرّب هذا النص من نص آخر في **الرسالة**:

إن كافة التركيبات الفاسدة للمادة توارت ولم يبق سوى

التي لا تقتضي فيها الآلية أي تناقض ذا أهمية.

وهكذا ظل ديدرو، رغم نزوعه إلى التحولّية، ميكانيكاً في طريقة تصوُّره للعضويات وطريقة عمل الكون. لكنه يتوصل إلى تفسير إيجابي للطبيعة قائم على العلم. لقد رفض الثباتية Fixisme والغائية، لأن الاثنتين مرتبطتان بمثالية اللاهوت. إن حجة «المسوخ»، وحالات الشذوذ الممكنة بصورة دائمة (الكُمْه[1] مثلاً)، لتدحض «النظام» الشهير للخلقيين. وتحمل عملية إزالة الساد درساً ضمنياً يبين أن الإنسان يتحرر عن طريق العلم من الضرورة، وأنه يستطيع من ناحيته أن ينظّم الطبيعة.

أما تجارب ديدرو على بسيكولوجيا الكُمْه، فهي أفكار علمية أخرى تقوده إلى المسألة الفلسفية التي ندعوها بـ«نظرية المعرفة».

---

(١) الأكمة: الأعمى بالولادة.

إن ما جاء في **رسالة حول العميان** يكفي ليجعلنا نرى في ديدرو باحثاً متقصياً شديد الدقة، وعالماً نفسانياً نافذ البصر ومجدِّداً عبقرياً. لقد أدرك بسرعة خاطفة كيف تستطيع الحواس أن يحلّ بعضها محل البعض الآخر، وكيف تتطورّ بفعل التركيز والتدريب. فكان متقدِّماً على كل من الأب دوليبيه وفالنتين هاوي ولويس براي، وذلك باقتراحه اختراع لغة ملموسة يستطيع التواصل عبرها كل من العميان والصم البكم والناس العاديون[١].

يبدو على كل حال أن حالة الأكمه تشكل عند ديدرو، وفوق كل شيء، الحد الفصل، الذي يتيح له توضيح فكرته حول مسألة المعرفة. وأن يرفض بادئ الأمر فِطْرانية inméisme كل من ديكارت ومالبرانش رفضاً نهائياً: **يبين ملحق بدفاع الأب دوبراد** أن النصر تحقق في المعركة لدى الجمهور المستنير، رغم تشنّج الجنسينيين والسوربون. فالفطرانية التي تدَّعي أننا نعرف عن طريق أفكار جاهزة، تلقى معارضتها في تجريبية empirisme لوك، الذي يستعيد مقولة أرسطو القديمة: ما من شيء في الفكر إلا وكان أولاً في الإحساس. لكن لوك لا ينتقل، في صياغة الفكر انطلاقاً من الإحساس، من مبدأ تفكير مستقل. كما أن تلميذه كوندياك، بطل الحسويّة الفرنسي، يقوم بالشيء نفسه في كتابه **بحث حول أصل**

---

(١) يؤكد ديدرو وأيضاً على أن العميان «يرون بالجلد». ولقد سخر الناس من تلك الفكرة، حتى اليوم الذي قال فيه اختصاصيون بوجود «حاسة بالعوائق» لدى العميان.

المعارف البشرية، عام ١٧٤٦ . ولن يمضي في منهجه حتى النهاية إلا في عام ١٧٥٤، وتحت تأثير ديدرو، دون أدنى شك.

لم يؤكد ديدرو من ناحيته على تلك المسألة إلا في **ملحق الدفاع**، المكتوب تحت اسم الأب دوبراد، وفي الموسوعة. وهو يهتم في رسالة حول العميان بنسبية الحواس والأعضاء ويلح على ضرورة مراقبة بعضها من قبل البعض الآخر. ثم يمضي إلى أبعد من ذلك أيضاً، فمقال «الجميل» في الموسوعة يمكن أن يقارب **الرسالة**، حين يبين أن معرفتنا لا تنجم عن أحاسيس سلبية، وإنما أيضاً عن نشاط عملي: فعن طريق الجهد لمعرفة العالم، وعبر التبادل الذي يقوم به الناس حول انطباعاتهم عن طريق اللغة، تبلغ المعرفة صعيدها المتقدم وتصبح واقعاً اجتماعياً.

إن ديدرو بعيد إذن كل البعد عن حسّوية مفرطة في بساطتها. ويعرف من ناحية أخرى أن لوك يؤدي أيضاً إلى مثالية بيركلي مثلما يودي إلى الحسوية الموضوعية التي تتأكد فيها المادية. لذا يرفض «التبجّح» البركلي رفضاً جلياً قائلاً بشكل مجازي إن ذلك النظام لم يكن له أن يَنْبش إلا في رأس أعمى. وهو يعرف أن ذلك النظام شاق على «الدحض في المبادئ» أي عبر حجج نظرية. لكنه يعرف أيضاً أن الوجود الموضوعي للعالم الخارجي يأخذ البرهان من التطبيق العملي. هذا على الأقل هو المعنى الكامن في **رسالة حول العميان**. ويقول في **ملحق الدفاع** إن من المستحيل «العثور عبر الاستدلال الخالص على ممر من واحد (الاحساس) إلى الآخر (وجود

الغرض)، وإنما لدينا «نزعة لا تقبل التجاوز لتأكيد وجود الأغراض التي تنسب إليها أحاسيسنا». يتمثَّل «حدّ» ديدرو هنا في الكلام عن النزعة أو الغريزة، ليقع مجدداً في الفلسفة الكلامية، في الوقت الذي تجاوز فيه المثالية: تلك الزلّة التي يشترك فيها أحياناً مع لاميتري، هي حال ملازمة لعصره ولا تقلل في شيء من فضائله الواسعة المتمثّلة في أنه لمح ما سوف يكون على نحو مشرق معيار التطبيق في نظرية ماركس الثانية حول فورباخ.

وليس التأكيد على الوجود الموضوعي للعالم سوى «حقيقة بدئية» أولى من المادية. فما الفكر بالنسبة للمادة؟ هاكم الجواب المنسوب للعميان بحذر:

أما وهم يرون المادة على نحو أكثر تجريداً منا بكثير،

فإنهم أقل بعداً عن الاعتقاد في أنها تفكّر.

يذكّر ديدرو فولتير، في جواب على رسالته، أنه هو نفسه الذي نسب إلى لوك (خطأ أو صواباً، فذلك لا يهم). الفكرة التالية: يستطيع الفكر حقاً أن يكون تعديلاً للمادة.

لا ريب في أن «القول عن فكرة إنها مادية، يمثل عثرة نحو تشوش المادية والمثالية». وذلك هو عيب لاميتري. فيتفادى ديدرو الوقوع فيه، لكنه لا يصوغ فكرته صياغة واضحة. أو يستخدم بالأحرى أحكاماً بمفردات سبينوزية (في **نزهة المرتاب** وفي الرد على فولتير، بعبارات مماثلة). وهنا أيضاً نقع لدى ديدرو على حد، للمرحلة الأولى من فكره على الأقل.

والحال هي نفسها حين يعكف متفكراً في التاريخ، تاريخ الإنسان في المجتمع. فيتضمن **ملحق بالدفاع** مقطعين رئيسين، حيث يستشعر مبدأ دراسة الأشكال المتتالية للمجتمع، وهو العلم الذي سيؤسّسه في الواقع كل من مورغان وإنغلز.

تتعلّق المسألة الدائرة بين الفلاسفة بالشرط الراهن لأفراد خلَفه (خلف الإنسان) باعتبارهم قطيعاً، لا باعتبارهم مجتمعاً. والشرط ليس ممكناً فقط، بل هو راهن، ويحيا في ظله تقريباً كافة المتوحشين، الذين يُسْمح للمرء بأن ينطلق من عندهم، حين يتصدى لأن يكتشف اكتشافاً فلسفياً أصل الطبيعة البشرية وسلسلة معارفها، بدلاً من الوقوف فقط عند اكتشاف عظمتها المتوارية.

وبدلاً من أن يقبل ديدرو بنظرية «المتوحش الخيِّر»، وأن يعظ على طريقة جان جاك روسو بالعودة إلى الطبيعة التي لم تعرف الفساد، رأى التقدم كامناً في بنية المجتمع والدولة. فيستعيد في **تابع الدفاع** التعابير التي استخدمها في مقال «السلطة السياسية»، ليعرّف **العقد**، الذي أسماه روسو اجتماعياً بعد أحد عشر عاماً (والذي سيراه على كل حال بطريقة حسّية أقل). إلا أنه يتخيّل تشكّل الدولة تخيّلاً ميتافيزيائياً ولا يلمح صراع الطبقات على الإطلاق.

نقول، بعد كل حساب، إن تفكير ديدرو حول العلوم الطبيعية والإنسانية كان متعدّد الجوانب وخصباً. فنراه في كتابه **أفكار حول تفسير الطبيعة** يستخلص بذكاء خارق الاستنتاجات للطريقة العلمية. لكنه ما انفك يُلحُّ على التجربة: في روايته

المجوهرات الواشية، حيث الفسلفة لها حيزها، تعتبر التجربة تمثالاً ضخماً يعمل على انهيار قصر الأفكار المسبقة والمنظومات، المصنوع من فقاعات صابون. وتساهم آلاف المقالات في الموسوعة بنشر ضرورة الملاحظة الدقيقة، والمشاهدة النقدية. ولا ريب في أن ديدرو يدافع عن حقوق العقل، الذي عليه أن يراقب كل تجربة معزولة. ولديه دون شك ميل واضح نحو «الأحلام»، والرؤى العبقرية المبتكرة التي يتمتع بها كبار العلماء، والمفكرون المبدعون، والتي يمكن أن تحتوي بشكل ما ومضةً من الحقيقة. ونوعاً من الحدس عن طريق القياس. لكن ذلك لا يحول دون أن تكون **رسالة حول العميان** نموذجاً للملاحظة الذكية وأن يحتوي **تابع الدفاع** إطراء فصيحاً لتقدم العلوم، الذي تسعى الكنيسة جاهدة لتأخيره والتعتيم عليه.

نقطة الوصول

إنه لأمر ممتع أن يتابع المرء، عبر مؤلفات ديدرو الأولى، مسيرة فكر على طريق التحرر أولاً، ثم بحثه عن مفهوم إيجابي للعالم، وهو مفهوم مادي سيكون الأكثر غنى بين كافة النظريات المادية السابقة للماركسية.

صحيح أنه ما يزال مقنّعاً، ولن يجرؤ أبداً على نشر ماديته نشراً علنياً لأن المؤلفات التي تتضمنها بوضوح ستظل مجهولة حتى عام ١٨٣٠. ومن المفهوم أيضاً أن ترغب الجبهة الفلسفية في البقاء دون تصدع، وأن التسامح كان تاماً ما بين الماديين والآلهانيين، حتى

أن ديدرو، لا يميّز على نحو عام ومثلما شاهدناه، بين موقفه وموقف الآلهانيين. والمسألة فيها بُعد نظر: لا ينبغي لنا أن نتنازع أمام العدو. ومسألة قناعة أيضاً بأن موقفه هو الموقف السليم وأنه سيحقق الفوز فيما بعد دون منازع. وبانتظار ذلك، كتب عام ١٧٤٩ إلى فولتير قائلاً:

من الأهمية بمكان عدم تناول الشوكران[1] على أنه مقدونس، لكن لا أهمية مطلقاً لمسألة الإيمان بالله أو عدم الإيمان به.

وإذا صغنا الكلام بطريقة أخرى انتهينا إلى أن إله الآلهاني لا يتسبب في عرقلة للعلم. أما التطبيق العملي للعلم فينتهي أخيراً إلى المعضلة: إمّا الإله أو التجربة والعلم. والمادية لا يمكن دحضها. أما الضرورات الأخلاقية فلن تتعارض مع اختيارنا، لا سيما وقد جاء في البحث:

لكي يقتنع المرء بأن هنالك منفعة في الفضيلة، لا ضرورة مطلقاً لإيمانه بالإله.

إن مادية ديدرو وإيجابية من حيث أنها تزودنا بأجوبة أو ببدايات أجوبة على المسائل الرئيسة لتاريخ العالم وأنواع الإنسان والمجتمع. أما قوته وصلابته فمردّهما نزوعه الشديد لأن يكون كاملاً. أما وهو يفترض وحدة المادة، فإنه يحرص أيضاً على الاستناد

---

(١) عشبة طبية سامة من الفصيلة الخيمية. وقد شرب سقراط من ذلك السم تنفيذاً للحكم الذي قضى بإعدامه. م.

إلى كافة العلوم تقريباً، آخذاً بالحسبان درجة تقدمها. لهذا السبب نرى أنه ليس سوقياً ولا سمجاً، وأنه لا يفصل الإنسان عن الطبيعة، وأنه يتجاوز في بعض النقاط، على نحو غير متساو، الميكانيكية أو التجريد الميتافيزيائي. وسوف يبدو ذلك على نحو أفضل في مؤلفات مرحلة النضج. أما مؤلفات مرحلة الشباب لدى ديدرو، فهي نقطة وصول ونقطة انطلاق في آن معاً. وإذا ما ضممناها إلى المقالات الأولى في الموسوعة، برهنت لنا على أن فكره قد جاء بنتائج مجدية وخصبة. أما عبقريته الجبارة فأسبغت على الفلسفة في عصره وفي بلاده، معناها كله وكامل مداها. إنها فلسفة ملموسة، فلسفة العلم، فلسفة الأنوار، والفهم المتشدد. وهي تُلَخِّص على الصعيد الذي بلغه، بتلك الصيغة الفياضة التي كتبها من بعد:

> ضع في ذهنك على الدوام أن الطبيعة ليست الله، وأن الإنسان ليس آلة، وأن الفرضية ليست واقعاً. وكن واثقاً من أنك لم تفهمني البتة أينما اعتقدت بأنك تلمح شيئاً مخالفاً لهذه المبادئ.

جان فارلوت

رسالة حول العميان
لصالح الذين يُبصرون

Possunt ,nec Posse Videntur

يقدرون ولا يظنون أنهم يقدرون[١]

يخامرني الشك، يا سيدتي، في أن يقدر الأكمه الذي أزال له السيد دو ريوميير السّاد[٢] مؤخراً، أن يُعلمنا بما كنتِ راغبةً في معرفته. ولم أقوَ على تبيّن ذلك، وهل هو خطأ منه أم منك. تقدّمتُ بالالتماس إلى المحسنِ إليه بنفسي، وعن طريق أصدقائه المفضلين، وأسمعته الكثير من كلام المجاملة. فلم نَفُزْ منه بشيء، وسوف يُرفَع الضّماد الأول من دونك. وكان لأشخاصٍ من ذوي الذهن المتفتّح، الشرف في تقاسم رفضه مع الفلاسفة. فلم يشأ باختصار أن يدع

---

(١) باللاتينية، قياساً على قول فيرجيل: Possunt, Quia Posse Videntur يقدرون، لأنهم يعتقدون بأنهم يقدرون.

(٢) ما تدعوه العامة بالمياه الزرقاء في العين. م.

الحجاب يسقط إلا أمام بضعة أشخاصٍ لا قيمةَ لهم. وإذا دفع بك الفضول لأن تعرفي لمَ يَحيط ذلك الأكاديمي الماهر بتلك السرِّية كلها، تجاربَ لا يمكن أن تحظى، وفق رأيك، بعدد كبير من الشهود المستنيرين، فسوف أجيبك بأنّ ملاحظات رجل على ذلك الجانب من الشهرة، لا تحتاج لمشاهدين، وهي تحدث، على قدر ما تحتاج لمستمعين، وقد حدثت. وعليه فقد رجعتُ، يا سيدتي، إلى ما كنت مزمعاً عليه أولاً. أمّا وأنا مرغم على الاستغناء عن تجربة، لم أكن أرى فيها من مكسب يزيد في معارفي أو معارفك، غير أنّ السيد دوريومير سيحقّق منها، دون شك، فائدة أكبر بكثير، فقد عكفت مع أصدقائي على مناقشة المادة الهامة التي هي موضوع لها. وكم سيسعدني إذا كان لحكاية مداولاتنا أن تحلّ محلّ المشهد الذي وعدتك به وعداً خفيفاً جداً.

في نفس اليوم الذي قام فيه البروسي بعملية إزالة السّاد لابنة سيمونو، توجّهنا لاستجواب أكمه بويزو: إنه رجل لا يفتقر إلى الحسّ السليم، فيعرفه عدد كبير من الأشخاص. وهو يلمّ بشيء من الكيمياء، كما تابع ببعض النجاح دروس علم النبات في حديقة الملك. لقد ولد لأب علّم الفلسفة بنجاح في جامعة باريس. وكان يتمتع بثروة ممتازة، تسمح له بأن يُشبع بكل راحة ما بقي له من حواس. لكنّ حب المتعة جرفه في شبابه. لقد أفرط في إرواء ميوله. وأصاب الاضطراب شؤونه المنزلية، فانسحب ليقيم في مدينة صغيرة في الضاحية، ويقوم في كل عام برحلة إلى باريس. ويحمل إليها

مشروبات يتولى تقطيرها بنفسه، فتلاقي استحساناً. فهاك يا سيدتي ظروفاً باهتة بعض الشيء، من الوجه الفلسفي. لكنها، لهذا السبب عينه، أكثر ملاءمة لتجعلك تحكمين على أنّ الشخص الذي أكلمك عنه ليس خيالياً البتة.

وصلنا منزل صاحبنا الأعمى في حدود الخامسة مساء، فوجدناه منشغلاً بجعل ابنه يقرأ بحروف نافرة: فلم تكن مضت أكثر من ساعة على استيقاظه. لأنك ستعلمين أنّ النهار يبدأ لديه حين ينتهي بالنسبة لنا. فمن عادته أن يتفرّغ لشؤونه المنزلية، وأن يعمل، فيما يخلد الآخرون للراحة. فليس في منتصف الليل ما يضايقه. ولا يتسبب هو بإزعاج أحد. فيحرص بادئ الأمر على أن يعيد كل ما جرت إزاحته أثناء النهار إلى مكانه. وعندما تستيقظ زوجته، تجد بطبيعة الحال المنزل مرتّباً. فالصعوبة التي يلاقيها العميان في العثور على الأشياء المبعثرة تجعلهم أصدقاء للترتيب. ولقد لاحظت أن الذين يقاربونهم بأُلْفة يشاطرونهم تلك الخلّة، إما بتأثير المثل الصالح الذي يقدِّمونه، وإما بدافع من شعور إنساني حيالهم. فيالَشَقاء العميان لولا تلك الاهتمامات الصغيرة ممن يحيطون بهم! بل يالتعاستنا، نحن أنفسنا من دونها! فالخدمات الكبرى تشبه قطع النقود الكبيرة، ذهبية كانت أم فضية، والتي لا نستخدمها إلا نادراً. أما الاهتمامات الصغيرة فهي قطع العملة التي نتداولها على نحو دائم.

يتصورّ صاحبنا الأعمى التناظرات على أفضل وجه. فالتناظر الذي هو مسألة اتفاق محض فيما بيننا، هو كذلك بالتأكيد، وعلى أصعدة كثيرة، بين الأعمى والمبصرين. فَلَفرْط ما يقوم الأعمى، عن طريق اللمس، بتفحّص التنظيم الذي نفرضه على الأجزاء التي تؤلف كلاً، لكي ندعوه جميلاً، يتوصَّل إلى القيام بتطبيق صحيح لذلك المصطلح. أما حين يقول: **إنّ هذا جميل،** فهو لا يقرّر. إنه يعيد فقط حكم المبصرين: وهل من شيء آخر يفعله ثلاثة أرباع الذين يقيِّمون مسرحية ما، بعد أن سمعوها، أو كتاباً من بعد قراءته؟ فالجمال بالنسبة للأعمى كلمة مجرّدة إذا كان منفصلاً عن الفائدة. ولكم هو كبير عدد الأشياء التي تفوته فائدتها، لنقصان عضو منه! أليس العميان جديرين بالشفقة وهم لا يعتبرون جميلاً سوى ما هو صالح؟ ولكم هي الأشياء المدهشة التي تفوتهم! يبقى أن الخير الوحيد الذي يعوّضهم عن تلك الخسارة، يتمثّل في أن لديهم أفكاراً عن الجميل، هي في الحقيقة أقل امتداداً من أفكار فلاسفة مستنيرين عالجوا الموضوع مطولاً، غير أنها أكثر منها وضوحاً.

يتكلم صاحبنا عن المرآة في كل آن. وأنت تظنين أنه لا يدري ماذا تعني كلمة مرآة. إلا أنه لن يضع مرآة على نحو معاكس للنور أبداً. وعلى قدر ما نعبّر نحن بتعقّل عن مزايا العضو الذي يفتقر إليه وعن عيوبه، يعبّر هو عنها: إذا كان لا يعلّق أية فكرة على المصطلحات التي يستخدمها، فإنه يمتاز على أقل تقدير، عن أكثرية الناس الآخرين، بعدم التفوّه بها البتة في الوقت غير الملائم. ويحدِّث

على نحو من الجودة والصواب عن كثير من الأشياء المجهولة لديه بشكل مطلق، حتى لتنزع علاقته الكثير من القوة عن تلك البرهنة التي نقوم بها كلنا، من غير أن نعرف السبب، على ما يجري داخل ذواتنا وعلى ما يجري داخل الآخرين.

سألته عمّ يفهم من كلمة مرآة، فأجابني: «آلة تبرز الأشياء البعيدة فيما بينها، إذا ما كانت موضوعة على نحو ملائم بالنسبة لها. إنها مثل يدي التي لا ينبغي أن أضعها بجانب شيء لأشعرَ به» ولو كان ديكارت أكمهاً، لكان عليه، حسبما أرى أن يتهلّل فرحاً بذلك التعريف. وأرجو منك أن تقدرّي، في الواقع، مدى الرهافة التي نُسِّقت بها بعض الأفكار لبلوغ ذلك. فلا معرفةَ لصاحبنا الأعمى بالأغراض إلا لمساً. ويعلم، استناداً للعلاقة مع الآخرين، أن المرء يعرف الأغراض بواسطة النظر، مثلما هي معروفة لديه باللمس؛ وأنه على أقل تقدير، التصوّر الوحيد الذي يستطيع صياغته. كما يعرف أيضاً أنّ المرء لا يستطيع أن يرى وجهه، رغم أنه يستطيع لمسه. فعليه أن يخلص إلى أنّ النظر نوع من اللمس الذي لا يطال سوى الأغراض المختلفة عن وجهنا، والبعيدة عنّا. من جهة أخرى، لا يعطيه اللمس فكرة إلا عن البروز. فيضيف قائلاً: المرآة إذن آلة تبرزنا خارج أنفسنا. فكم من الفلاسفة المشهورين استخدموا حجة أدنى لبلوغ مفاهيم مغلوطة بالدرجة نفسها! بل كم ينبغي للمرآة أن تكون مدهشة بالنسبة لصاحبنا الأعمى؟ وكم ازداد عجبه حين أعلمناه أن من هذه الآلات ما يكبرّ الأغراض. وأن أخرى منها تحركها من غير أن

تضاعفها، فتقرّبها وتبعدها، وتجعلها منظورة فتكشف أصغر أجزائها لعيون علماء الطبيعة. وأنّ منها ما يضاعف الأجزاء بالآلاف. وفيها أخيراً ما يبدو أنه يشوهها تشويهاً تاماً؟ فطرح علينا مئات الأسئلة العجيبة حول تلك الظواهر. سألنا على سبيل المثال إن كان من ندعوهم علماء الطبيعة هم فقط الذين يشاهدون بواسطة المجهر. وإن كان الفلكيون وحدهم يشاهدون بالتيليسكوب. وإن كانت الآلة التي تكبِّر الأغراض أكثر ضخامة من تلك التي تصغّرها. وإن كانت التي تقرّبها أقصر من التي تبعدها. أما وأنه لم يفقه البتة كيف لذلك الآخر من أنفسنا، وفق تعبيره، والذي تكرِّره المرآة بروزاً، يفلت من حاسة اللمس، فقال: «هاكم حاستين تضعهما آلة صغيرة في حالة من التناقض: وقد يكون لآلة أكثر إتقاناً أن توفّق بينهما أكثر، من غير أن تصبح الأغراض بالنتيجة أكثر واقعية. وقد تؤدي ثالثة، متقنة أكثر وأقل مراوغة، إلى جعلها تتوارى، فتنبئنا بالخطأ».

وقال له السيد دو ... : «وما العيون في رأيك؟» فأجابه الأعمى: «إنها العضو الذي يؤثّر عليه الهواء تأثير عصاي على يدي. » فجعلنا ذلك الجواب نصاب بالذهول. وفيما كنا نتبادل النظر بإعجاب، أضاف يقول: «إنّ ذلك لصحيح حتى أني حين أضع يدي بين عيونكم وبين غرضٍ ما، تكون يدي حاضرة بالنسبة لكم، لكنّ الغرض غائب عنكم. ويحصل لي الشيء نفسه، حين أبحث عن شيء ما بعصاي فتصادف شيئاً آخر».

افتحي، يا سيدتي، «**مبحث انكسار النور**» لديكارت، وسوف تقعين فيه على ظواهر البصر مطابقة لظواهر اللمس، وعلى لوحات البصريات التوضيحية وهي ملأى بأشكال أناس عاكفين على الرؤية بواسطة العصي. فلم يستطع ديكارت وكافة الذين جاؤوا من بعده، إعطاءنا من أفكار أكثر دقة حول البصر. ولم يحقق ذلك الفيلسوف الكبير في هذا الصدد، من انتصار على صاحبنا الأعمى، يفوق انتصاره على الشعب الذي له عيون.

لم يَرْتَءِ أي واحد منا أن يستجوبه حول التصوير والكتابة: لكنه أمر جليّ أن ليس من استفسارات قط لا يقوى تشبيهه على تلبيتها. ولا يخامرني شك على الإطلاق في أنه سيقول لنا إن محاولة القراءة أو النظر من غير عيون، هي البحث عن دبوس بواسطة عصا غليظة. لقد كلمناه فقط عن تلك الأنواع من المنظورات، التي تعطي بروزاً للأشياء، والتي بينها وبين مرايانا كثير من التماثل وكثير من الاختلاف في آن معاً. ولاحظنا أنها تسيء إلى الفكرة التي كوّنها حول المرآة، على قدر ما تعاضدها، وأنه كان يميل إلى الاعتقاد بأن المرآة مادامت تصوّر الأغراض، فإن الرسام العازم على تمثيلها، قد يقوم بتصوير مرآة.

رأيناه يدخل الخيوط في سموم إبرٍ دقيقة جداً. وهل يسعنا يا سيدتي أن نرجوك التوقّف عن القراءة هنا للبحث فيما ستفعلين لو كنت مكانه؟ إذا لم تقعي على حيلة فسوف أذكر لكِ حيلة صديقنا الأعمى. إنه يضع الإبرة عرضانياً بين شفتيه وفي اتجاه فمه نفسه.

ويستعين بلسانه والامتصاص فيجتذب الخيط الذي يتبع شهيقه، ما لم يكن غليظاً جداً بالنسبة لسمّ الإبرة. لكنّ الذي يرى ليس في تلك الحال أقلُّ إحساساً بالضيق من المحروم من البصر.

وهو يتمتع بذاكرة الأصوات إلى درجة مدهشة، فالوجوه لا تقدّم لنا تنوّعاً أكبر مما يحلظ في الأصوات. بل له فيها كميّة لا تحصى من الفروق الدقيقة التي تفوتنا، لأننا لا نقع في مراقبتها على الفائدة نفسها التي يقع عليها الأعمى. إنّ أقلّ من سنتذكّر، من بين كافة الناس الذين رأيناهم، هو شخصنا نحن. إذ لا نتفحّص الوجوه إلا لنتذكّر الأشخاص. وإذا كنا لا نحفظ وجهنا، فذلك لأننا لن نتعرّض للخلط بيننا وبين الآخر أو الظن أنّ الآخر نحن. ومن جهة أخرى فإن استنجاد بعض حواسنا ببعضها الآخر تحول دون اكتمالها. ولن تكون هذه هي المناسبة الوحيدة التي أُبدي ملاحظة حيالها.

قال لنا صاحبنا الأعمى في هذا الشأن، إنه كان مهيأ لاستدرار الشفقة لحرمانه من المزايا التي نتمتع بها نفسها، وعلى وشك اعتبارنا متفوّقين ذكاء، لولا أنه اختبر مئات المرات كم نحن نتخلّف عنه على أصعدة أخرى. فوجدنا هذه الملاحظة تستدعي ملاحظة أخرى. فقلنا إنّ هذا الأعمى يعتبر نفسه مساوياً لنا نحن المبصرين، بل ربما أفضل منا: فلم إذن لا يقوم الحيوان، إذا كان يتفكّر، وليس ذلك بموضع للشك، فيوازن بين مزاياه على الإنسان، والتي هي معروفة له أكثر من مزايا الإنسان عليه، ليتقدّم بحكم مماثل؟ قد تقول الذبابة الصغيرة: له ذراعان ولي أجنحة. فيقول الأسد: إن كان لديه

سلاح، أليس لدينا مخالب؟ وسوف يرانا الفيل مثل الدويبات. وتأذن لنا كافة الحيوانات عن طيب خاطر، بعقل نظلّ معه بأمسّ الحاجة إلى غريزتها، مدّعية بأنها مسلّحة بغريزة تجعلها في غنى تام عن عقلنا. ولدينا نزعة شديدة العنف إلى المغالاة بمناقبنا والتقليل من شأن مثالبنا، حتى ليكاد يبدو أن على الإنسان أن يكتب بحثاً في القوة، وأن يكتب الحيوان بحثاً في العقل.

وارتأى أحدنا أن يسأل صديقنا الأعمى، إن كان يسرُّه أن تكون له عينان، فأجاب: «لو لم يكن الفضول مسيطراً عليّ لفضّلت أن تكون لي ذراعان طويلتان: فيبدو لي أن يديّ تُعْلماني بما يجري في القمر، بأفضل مما تعلمكم به أعينكم ومناظيركم. زدْ أن الأعين تكف عن الرؤية في وقت مبكر عن الأيدي واللمس. ينبغي إذن السعي لتطوير العضو المتوفّر لدي بدلاً من منحي عضواً ينقصني».

ويتوجّه صاحبنا الأعمى إلى الضجة وإلى الصوت بدرجة من اليقين، لا أشك معها في أن مثل ذلك التمرين قمين بجعل العميان حاذقين جداً وخطرين جداً. وسوف أقص عليكِ واقعة من شأنها أن تقنعكِ كم نكون مخطئين إذا انتظرنا منه رمية بحجر أو عرّضنا أنفسنا لطلق ناري من مسدس يحمله، مهما قصرت فترة تعوّده على استخدام ذلك السلاح. فقد تنازع أيام شبابه مع واحد من أشقائه، وكان نزاعاً مؤلماً. فبعد أن عيل صبره من الكلام النابي الذي تعرض له، أمسك بأول غرض وقع تحت يده فرماه به فأصابه في جبينه فطرحه أرضاً.

وكان أن استدعته الشرطة على أثر تلك المغامرة وبضع مغامرات أخرى. إنّ المظاهر الخارجية للقوة، التي تفعل فعلها في أنفسنا بحدّة كبرى، ليس لها أي أثر على العميان. فمثُلَ صاحبنا أمام رجل القضاء كأنه أمام صنوٍ له. فلم تؤثّر فيه التهديدات مطلقاً. ثم قال للسيد هيرو: ماذا ستفعلون بي؟ فأجابه القاضي: سوف أرمي بك في هوة مظلمة في أعماق السجن. فردّ عليه الأعمى قائلا: «ولكنّي مقيم فيها منذ خمسة وعشرين عاماً، يا سيدي». فياله من جواب، يا سيدتي! وياله من شاهد لرجل يحب المواعظ الأخلاقية مثلي! فنحن نخرج من الحياة مثل من يخرج من صالة عرض سحري. والأعمى يخرج منها مثل من يخرج من سجن: وإذا كان لنا في الحياة متعة أكبر مما لديه، فعليك أن توافقيني على أنه يشعر بأسف أقل منا بكثير حيال الموت.

يقدّر أعمى بويزو مدى قرب النار من درجة الحرارة. وامتلاءَ الأواني من الصوت الذي تحدثه السوائل التي يسكبها فيها، ويقدّر تجاور الأجسام من أثر الهواء على وجهه. وهو على درجة من الحساسية حيال أدنى التقلبات التي تطرأ في الجو، حتى أنه يقوى على التمييز بين شارع ودخلة. ويخمّن تخميناً عجيباً وزن الأجسام وسعة الأوعية. وقد جعل من ذراعيه موازين على درجة من الدقة. ومن أصابعه مقاييس تقدير على درجة من الخبرة، حتى أني أراهن دوماً مع صديقنا الأعمى ضد عشرين شخصاً يبصرون. وليس في مَلَسِ الأجسام تلوّنات أقل مما لديه من وقع الصوت، فلا يُخْشى عليه من أن يعتبر زوجته امرأة أخرى، ما لم يكن هو الرابح من المبادلة.

ويبدو مع ذلك في الظاهر احتمال مشاعية النساء لدى شعب من العميان، أو أن تكون قوانينهم ضد الزنا شديدة الصرامة. إذ سيكون سهلاً جداً على النساء خداع أزواجهن، بإشارة متفق عليها مع عشاقهن.

إنه يحكم على الجمال باللمس. وذلك مفهوم. لكن ما لا يسهل إدراكه، أنه يُدخل في اعتباره ذاك، النطق ورنّة الصوت. فيبقى على المشرّحين أن يعلمونا إن كانت هنالك من علاقة ما بين أجزاء الفم والحنك وبين الشكل الخارجي للوجه. وينجز أشغالاً يدوية صغيرة بالصنارة. ويؤدي تسوية بالكوس. ويقوم بفك الآلات العادية وتركيبها. ويُلمّ بما يكفي من الموسيقى لعزف مقطوعة يقولون له علاماتها ومدة نغماتها. ويَفْضُلُنا بكثير في تقدير الفترة الزمنية، من توالي الأفعال والأفكار. أما جمال البشرة وامتلاء الجسم، وتماسك اللحم، ومزايا الشكل وعذوبة النَفَس ومفاتن الصوت والنطق، فهي المناقب التي يقيم لها وزناً كبيراً بين غيرها.

تزوّج ليحظى بعينين تصيران ملكاً له. كان يخطط من قبل للمشاركة مع رجل أصم يُعيره عينين، فيقدّم له مقابلهما أذنين. وما من شيء أدهشني فيه سوى مهارته الفريدة في عدد كبير من الأشياء. وحين أعربنا له عن دهشتنا قال: «ألاحظ حقاً، أيها السادة، أنكم لستم بعميان: أنتم في عجب مما أفعل فلم لا يفاجئكم أيضاً أنني أتكلم؟» وأعتقد أن في ذلك الجواب من الفلسفة أكثر بكثير مما كان يظن هو نفسه. إنّ السهولة التي نتعلّم بها الكلام لشيء مدهش حقاً. فنحن لا نتوصّل إلى ربط فكرة بكمية من التعابير التي لا يمكن تمثيلها

بأغراض محسوسة، والتي إذا صح القول، لا جسم لها مطلقاً، إلا عبر سلسلة من التنسيقات المرهفة والعميقة للتماثلات التي نلحظها بين تلك الأغراض اللامحسوسة والأفكار التي تثيرها. وعلينا أن نُقِرّ، بناء على ذلك، بأن الأكمه ينبغي أن يتعلّم الكلام على نحو أصعب بكثير من سواه، ما دام عدد الأغراض غير المحسوسة كبير جداً بالنسبة له، وأن مجال المقارنة والتنسيق لديه أضيق بكثير، فكيف لنا على سبيل المثال أن نجعل كلمة **سيماء** تثبت في ذاكرته؟ إنه نوع من القبول المرتكز على أغراض ضئيلة في حساسيتها بالنسبة لأعمى، حتى أننا لعدم الوفرة الكافية فيها بالنسبة لنا نحن المبصرين، نصبح في حرج شديد من القول بدقة كبيرة ماذا يعني أن يكون المرء ذا سحنة أو سيماء. وإذا كانت كامنة في العيون على نحو أساسي، فاللمس قاصر دونها. أما بعد فماذا تعني للأعمى العيون الناعسة والعيون اليقظة والعيون الفطنة، إلخ*

وخلصت من ذلك إلى أننا نجني دون شك من تضافر حواسنا وأعضائنا فوائد جمّة. لكن الأمر سيكون أيضاً مغايراً تماماً لو درّبناها على نحو منفصل، بحيث لا نستخدم اثنتين أبداً في المناسبات التي تكفينا واحدة فيها. إن إضافة اللمس إلى البصر حين تكون العينان كافيتين، كمن لديه حصانان قويان ونشيطان، فيسرج ثالثاً ويشده إلى العريش فيجرّ من جانب فيما الآخران يجران من الجانب الثاني.

أما وأنّ الشك لم يراودني قط في أن حالة أعضائنا وحواسنا ذات تأثير كبير على طبيعة أنفسنا وعلى أخلاقنا، وأن أفكارنا ذات الطابع الذهني الخالص، إذا جاز لي أن أقول ذلك، على علاقة لصيقة

بنية جسدنا، فقد شرعت أستجوب صاحبنا الأعمى حول الرذائل والفضائل. فلاحظت بادئ ذي بدء أنه يمقت السرقة مقتاً شديداً. ونشأ ذلك في نفسه من علّتين اثنتين: من السهولة التي يمكن بها سرقته من غير أن يلحظ ذلك. وربما أكثر أيضاً، من سهولة مشاهدته حين يسرق. وهذا لا يعني أنه لا يعرف حق المعرفة كيف يحترس من الحاسة التي يعرف أننا نتمتع بها زيادة عنه أو أنه يجهل طريقة إخفاء سرقته كما ينبغي. وهو لا يقيم كبير وزن للحياء: ولولا عوادي الطقس، التي تصدّها الملابس، لما أدرك لهذه من ضرورة على الإطلاق. ويعترف صادقاً أنه لا يفهم سبباً لحجب جزء من الجسم أكثر من آخر، بل لا يفهم مطلقاً سرّ الغرابة التي تدعونا إلى إقامة تفضيل بين هذه الأجزاء، والتي يفرِض استخدامها والمضايقات التي تتعرّض لها، أن تبقى طليقة. وعلى الرغم من أننا نعيش في قرن أراحنا فيه الفكر الفلسفي من قسم كبير من الأحكام المسبقة، فأنا لا أظن أن يأتي علينا يوم ننكر فيه مزايا الحياء إنكاراً تاماً مثل إنكار صاحبي الأعمى. وما كان لديوجين قط أن يكون في نظره فيلسوفاً.

ولما كان العميان لا يتأثّرون بغير الشكوى، من بين كافة المظاهر الخارجية التي تستدرّ منا الرحمة وتوقظ أفكار الألم في كوامننا، فإني أرتاب على نحو عام في بربريتهم. فأي فارق لدى الأعمى بين إنسان يتبول وإنسان آخر يُهرق دمه من غير أن يشكو؟ ألا نكف نحن أنفسنا عن الرأفة حين تفعل المسافة أو صغر الأشياء في أنفسنا ما يفعله فقدان البصر لدى العميان؟ ففضائلنا رهن إلى حد كبير، بطريقة إحساسنا وبالدرجة التي تفعل فيها الأشياء الخارجية فعلها في أنفسنا. وعليه

فليس لدي أدنى شك في أن العديد من الناس، ولولا الخوف من العقاب، ما لاقوا في قتل إنسان عن بعد، وهم لا يرونه إلا بحجم سنونو، أكثر مما يلاقون من عناء في ذبح ثور بأيديهم. وإذا كانت تأخذنا الرأفة بحصان يتوجّع، وكنا نسحق نملة دون أن يطرف لنا جفن، أليس المبدأ نفسه يحكمنا؟ إيه يا سيدتي، لكم هي أخلاق الأعمى مغايرة لأخلاقنا! وكم تختلف أخلاق الأصمّ عن أخلاق الأعمى، وكم لكائن يتمتع بحاسة زيادة عنّا أن يجد أخلاقنا ناقصة، ما لم أقل ما هو أسوأ!

ولا يتناغم تفسيرنا الفلسفي عما لديهم تناغماً أفضل. فكم هي المبادئ التي يعتنقون وهي في نظرنا منافية للعقل، والعكس بالعكس! قد يسعني الدخول هنا في تفصيل تستملحينه دون شك، غير أن بعض الناس الذين يرون الجريمة أينما نظروا، لن يتوانوا عن اتّهامه بمعاداة الدين، وكأن الأمر منوط بي لأجعل العميان يتبيّنون الأشياء على نحو مغاير لما يتبيّنون. وسوف أكتفي بملاحظة شيء واحد ينبغي، في اعتقادي، أن يوافق الجميع عليه: إن ذلك الاستدلال العظيم الذي نستخلصه من معجزات الطبيعة، ضئيل جداً بالنسبة للعميان. واليسر الذي نتمتع به لخلق محسوسات جديدة، إذا صح القول، بواسطة مرآة صغيرة، لهو شيء يشق عليهم فهمه. كالكواكب التي حكم عليهم بعدم رؤيتها أبداً. أما تلك الكرة المضيئة التي تتقدم من الشرق صوب الغرب فلا تدهشهم على قدر نار صغيرة

يتيسّر لهم تأجيجُها أو تخفيفُ حدَّتها: أما وهم يرون المادة على نحو أكثر تجريداً منا بكثير، فهم أقل بعداً عن الاعتقاد بأنها تفكر.

لو أنّ رجلاً لم يبصر إلا أثناء يوم واحد أو يومين ووجد نفسه بين شعب من العميان، فعليه أن يختار لزوم جانب الصمت، أو أن يُعتبر مجنوناً. فهو سيحيطهم كل يوم علماً بسرّ جديد ما، لن يكون سراً إلا بالنسبة لهم، في حين سيكون بعض المفكّرين في غاية الامتنان بعدم الوثوق به. والمدافعون عن الدين، ألا يستطيعون أن يستغلوا استغلالاً كبيراً جحوداً على تلك الدرجة من التصلّب، بل مُحقّاً جداً من بعض النواحي، ومع ذلك فليس له مبرّر؟ وإذا ما أقَرَّيتِ لفترة بتلك الفرضية، فسوف تذكّرك، تحت ملامح مستعارة، بتاريخ الذين شقوا بلقاء الحقيقة في عهود الظلام وما تعرضوا له من اضطهاد، فقد تهوّروا بالكشف عنها لعميانهم المعاصرين، والذين لم يقعوا فيما بينهم على أعداء أكثر شراسة من أولئك الذين كان ينبغي، تبعاً لحالهم وتربيتهم، أن يكونوا الأقل ابتعاداً عن مشاعرهم.

تركتُ إذن أخلاق العميان وشأنها وتفسيرهم الفلسفي، لأنتقل إلى أشياء أقل أهمية، لكنها تلاصق عن كثب هدف الملاحظات التي جرت هنا من كل حدب وصوب، منذ وصول البروسي. السؤال الأول: كيف يُكوِّن الأكمه أفكاراً عن الأشكال؟ أعتقد أن حركات جسمه، والوجود المتتابع ليده في أماكن عدة، والإحساس غير المنقطع بجسم يمرّ من بين أصابعه، تعطيه مفهوم الاتّجاه، فإذا مرّ بها على سلك مشدود شداً قوياً، أخذ فكرة عن

الخط المستقيم. وإذا تابع انحناء سلك متراخٍ، أخذ فكرة عن الخط المنحني. ويمتلك بصورة عامة، نتيجة لتجارب اللمس المتكررة، ذاكرة الأحاسيس التي اختبرها في نقاط مختلفة: لديه مطلق الصلاحية في دمج تلك الأحاسيس أو النقاط، وصنع أشكال منها. فما الخط المستقيم، بالنسبة لأعمى ليس بمهندس، بشيء آخر سوى الذاكرة لسلسلة من الأحاسيس اللمسية الموضوعة ضمن اتجاه سلك مشدود. والخط المنحني ذاكرة سلسلة من الأحاسيس اللمسية، المنقولة إلى سطح جسم صلب ما، مقعر أو محدّب. وتعدّل الدراسة في الهندسة مفهوم هذه الخطوط عبر الخصائص التي تكتشفها لها. غير أن الأكمه، مهندساً كان أم لا، ينقل كل شيء إلى رؤوس أصابعه. وإذ نقوم نحن بتنسيق نقاط ملونة، لا ينسّق من جانبه سوى نقاط محسوسة، أو لنقل بدقّة أكبر، سوى أحاسيس لمسية يحملها في ذاكرته. ولا يدور في رأسه من شيء مماثل لما يدور في رأسنا. فهو لا يتصوّر مطلقاً. ذلك أن التصوُّر يقتضي تلوين أرضية، ثم انتزاع نقاط من تلك الأرضية، مع افتراض تلوّنها بلون مغاير للأرضية. أعيدي إلى تلك النقاط لون الأرضية نفسه، تَرَيْ أنها تختلط فيها على الفور فيتلاشى الشكل. إنّ الأشياء تتم على ذلك النحو في تصوّري أنا على الأقل. ولا أعتقد أنّ الآخرين يتصوّرون على نحو مغاير لما أفعل. إذن حين أنوي أن ألمح في ذهني خطاً مستقيماً، وبوجه مغاير لخصائصه، أباشر بمدّه داخل لوحة بيضاء، فأنتزع منها سلسلة من النقاط السوداء الموضوعة في الاتجاه نفسه.

وكلما كانت ألوان الأرضية وألوان النقاط صارخة، لمحتُ النقاط بشكل متميز أكثر، وإنّ شكلاً بلون مقارب جداً للون الأرضية لن يتعبني تفحّصه بشكل أقل داخل تصوري، إلا خارجاً عني وفوق لوحة.

أنت ترين إذن، يا سيدتي، أنّ بالمستطاع وضعَ قوانين لنتصور بسهولة أغراض عديدة في آن معاً وملوّنة بألوان شتى. غير أنّ تلك القوانين لن تصلح بالتأكيد لاستخدام الأكمه. فليس للأكمه أن يتذكّر، وهو الذي لا يستطيع التلوين، ولا أن يشكّل بالنتيجة كما نفعل نحن، سوى الأحاسيس الملتقطة عن طريق اللمس، فينقلها إلى نقاط أو أماكن أو مسافات مختلفة، فيكوّن منها أشكالاً. من الثابت أنّ المرء لا يصوغ من شكل في تصوّره دون تلوين، حتى أنهم لو أعطونا لنتلمّس وسط الظلام كرات صغيرة، لا نعرف مادتها ولا لونها، فإننا نفترض على الفور أنها بيضاء أو سوداء أو من أي لون آخر. أما إذا لم نسبغ عليها أيّ لون، فلن يكون لدينا، ومثلنا هنا كمثل الأكمه، سوى ذاكرة الأحاسيس الصغيرة المنبّهة على رؤوس الأصابع، والتي يمكن لأجسام صغيرة كروية أن تحدثها. إذا كانت تلك الذاكرة شديدة الشرود فينا، وكنا لا نملك من فكرة عن الطريقة التي يثبِّت بها الأعمى أحاسيسه اللمسية ويستعيدها وينسّقها، فذلك نتيجة للعادة التي اتخذناها عن طريق العيون، بتنفيذ كل شيء في تصوّرنا بواسطة الألوان. لكن وقع لي، أنا نفسي، ضمن اضطرابات عاطفية عنيفة، أن شعرت برعشة في يدي بكاملها. وأحسست بتأثير

أجسام لمستها قبل زمن طويل تستيقظ بدرجة من الحدّة وكأنها ماثلة في متناول لمسي، ولاحظت بتمييز شديد أن حدود الإحساس تنطبق بكل دقة على حدود تلك الأجسام الغائبة. وعلى الرغم من أن الإحساس غير قابل للانقسام بنفسه، فهو يحتل، إذا جاز لنا استخدام هذا التعبير، فسحة ممتدة، تتوفّر فيها للأكمه القدرة على أن يضيف إليها أو يقتطع منها بالفكر، وهو يزيد الجزء المتأثّر ضخامة أو يقلّل من حجمه. وهو ينشئ بهذه الطريقة نقاطاً أوسطوحاً وأجساماً صلبة، بل سيجد لديه جسماً صلباً بحجم الكرة الأرضية، إذا افترض أن طرف إصبعه ضخم بحجم الكرة، ويحتلّه الإحساس طولاً وعرضاً وعمقاً.

ولا أعرف من شيء يبرهن برهاناً أفضل على واقع الحاسّة الداخلية من تلك المَلَكَة الضعيفة داخلنا، والقوية لدى الكُمه، بالإحساس بأجسام أو بتذكّر الإحساس بها، حتى وهي غائبة، ولم يعد لها من تأثير عليهم. فنحن لا نستطيع أن نُفْهِم الأكمه كيف يصوّر لنا التخيّل الأغراض الغائبة كأنّها حاضرة. غير أننا نستطيع بكل يسر أن نتعرّف في داخلنا على ملكة الإحساس برأس أصبعنا بجسم لم يعد موجوداً، مثلما هي لدى الأكمه. فمن أجل هذه النتيجة، اضغطي بالسبابة على الإبهام. أغمضي عينيك ثم باعدي بين أصبعيك. تفحّصي على أثر تلك المباعدة ما يجري بداخلك وأخبريني إن كان الإحساس يدوم طويلاً من بعد أن توقّف الضغط. وإن كانت روحك، أثناء ذلك الضغط تبدو لك في رأسك أكثر مما هي في رؤوس أناملِك. وإن كان ذلك الضغط لا يقدم لك مفهوماً

للسطح عبر الفسحة التي يشغلها الإحساس. فنحن لا نميّز وجود الكائنات خارجاً عنا، عن تمثيلها داخل تصورنا، إلا بقوة الانطباع وضعفه: والأكمه، مقابل ذلك لا يميّزُ الإحساس مع الوجود الواقعي لمحسوس خارجاً عن إصبعه، إلا بقوّة الإحساس نفسه أو بضعفه.

وإذا ما وقع يوماً لفيلسوف أعمى وأصم بالولادة أن يصنع إنساناً على نمط إنسان ديكارت، فإني أملك الجرأة لأؤكّد لك يا سيدتي، إنّه سوف يضع الروح في أنامله. لأن أحاسيسه الأساسية وكافة معارفه، إنّما تأتيه من هنالك حصراً. ومن عساه يحيطه علماً بأن رأسه هو مُسْتَقَرّ أفكاره؟ وإذا كانت أعمال التخيّل ترهق رأسنا، فذلك أنّ الجهد الذي نبذله للتخيّل شبيه جداً بما نبذل لكي نبصر بمحسوسات قريبة جداً أو صغيرة جداً. لكنّ الأمر مغاير لذلك لدى الأعمى والأصم بالولادة. فالأحاسيس التي اكتسبها باللمس ستكون إلى حد ما، قالباً لكافة أفكاره. ولن يدهشني أن تكون أصابعه، من بعد تفكّر عميق، مصابة بنفس الإرهاق الذي نحس به في رؤوسنا. ولن أخشى مطلقاً أن يردّ فيلسوف عليه بأن الأعصاب هي علل أحاسيسنا، وأنها تنطلق كلها من الدماغ: حين تُقدَّم البراهين على هذين الاقتراحين اللذين قلّما قُدِّم برهان عليهما، ولاسيّما الأول منهما، فسوف يكفيه إيضاح لكل ما حلم به الفيزيائيون بذلك الخصوص، من أجل أن يظل ثابتاً على شعوره.

لكن إن لم تكن مخيّلة الأعمى سوى مَلَكة التذكّر لإحساسات بنقاط قابلة للّمس، والتوفيق فيما بينها، وكانت مخيلة إنسان مبصر

ملكة التذكّر لنقاط منظورة أو ملونة، والتنسيق فيما بينها، فينشأ عن ذلك أن الأكمه يتبيّن الأشياء بطريقة أكثر تجريداً منا بكثير، وأنه قد يكون أقل عرضة للخطأ في مسائل التأمّل الخالص. ذلك أن التجريد لا يقوم إلاّ على تفريق الخصائص المحسوسة للأجسام فكرياً، أو الفصل بين بعضها والبعض الآخر، أو عن الجسم نفسه الذي هو قاعدة لها. وينجم الخطأ عن ذلك الفصل غير المُحْكم أو الذي لا مسوّغ له. فهو غير محكم في المسائل الميتافيزيائية، وهو بلا مسوغ في المسائل الفيزيائية الرياضية. أما الوسيلة شبه المؤكّدة للوقوع في الخطأ في الميتافيزياء، فتتمثّل في عدم تبسيط المحسوسات التي يهتمّ بها المرء تبسيطاً كافياً. وأما السرّ الذي لا يخيب للوصول في الحقل الفيزيائي الرياضي إلى نتائج ناقصه، فيكمن في افتراضها أقلّ تركيباً مما هي.

هنالك نوع من التجريد لا يقوى عليه سوى قلة من الناس، حتى ليبدو مقتصراً على ذوي الذكاء الخالص. إنه النوع الذي يُخْتَزَل كلُّ شيء من خلاله إلى وحدات رقمية. وينبغي أن نسلّم بأن نتائج تلك الهندسة ستكون مضبوطة جداً وصِيَغَها عامة جداً. ذلك أنه ليس من محسوسات، في الطبيعة أو في الممكن على حدٍ سواء، لا تقدر تلك الوحدات على تمثيلها، من نقاط وخطوط وسطوح ومجسّمات وأفكار وآراء وأحاسيس، و... إذا ما كان بالمصادفة، أساس نظرية فيثاغورث، فيسعنا أن نقول عنه إنه أخفق في تطلّعه، لأن تلك الطريقة في البحث الفلسفي تتجاوزنا بشكلٍ فائق، وهي شديدة

الاقتراب من الكائن الأسمى، الذي يقوم، وفقاً للعبارة الذكية التي قالها مهندس إنكليزي: بـ «الهندسة» في الكون على نحو دائم.

الوحدة الخالصة والبسيطة رمز فائق الغموض وعمومي جداً بالنسبة لنا. فحواسنا تعود بنا إلى إشارات أكثر تماثلاً مع امتداد فكرنا ومع بنية أجهزتنا. ولقد تصرّفنا على نحو يمكّن من جعل تلك الإشارات مشتركة فيما بيننا، وأن تؤدي، إن صحّ القول، دور المستودع للتجارة المتبادلة لأفكارنا. ولقد أنشأنا منها لعيوننا، وهي الحروف. ولآذاننا، وهي الأصوات المنطوقة. لكن ليس لدينا من شيء للّمس، رغم وجود طريقة خاصة بالكلام في هذا السبيل، وبالحصول على أجوبة. فالافتقار إلى هذه اللغة، يجعل التواصل مقطوعاً قطعاً تاماً بيننا وبين الذين يولدون صماً وعمياناً وبكماً. فهم يكبرون. لكنهم يظلون في حالة من الغباوة. فقد يكتسبون أفكاراً، إذا ما تكلمنا إليهم منذ الطفولة، بطريقة ثابتة ومحدّدة ومثابرة وموحَّدة. أو باختصار، إذا ما خطَّينا على أكفِّهم الحروف عينها التي نخطُّها على الورق وأن يظل المدلول نفسه مرتبطاً بها على نحو لا يتغيّر.

ألا تبدو لك تلك اللغة مريحة يا سيدتي، شأنها شأن لغة أخرى؟ أليست كلها مبتكرة؟ وهل تجرئين على أن توكدي لنا، إنه ما من أحد أسمعك شيئاً على ذلك النحو البتة؟ ليس المقصود إذن سوى تثبيتها ووضع قواعد نحوية لها ومعاجم، إذا ما تبين أن التعبير بحروف الكتابة العادية، بطيء جداً بالنسبة لهذا المعنى.

للمعارف ثلاثة أبواب للولوج إلى داخل روحنا، فنبقي على واحد منها مؤصداً ومرتجاً لعيب في الإشارات. ولو أنّا أهملنا الاثنين الآخرين، لا نحدرنا بفعل ذلك إلى درك البهائم. أما وأننا لا نملكُ سوى المضغوط من أجل أن نتفاهم بحاسة اللمس، فليس لنا سوى الصراخ للتكلم بالأذن. ينبغي، يا سيدتي، أن تنقصنا حاسّة، لنعرف مزايا الرموز المخصّصة لباقي الحواس. فالناس الذين شاء سوء طالعهم أن يكونوا صمّاً وعمياناً وبكماً، أو الذين فقدوا هذه الحواس على أثر حادث ما، سوف يفتنهم وجود لغة للمس، دقيقة وواضحة.

إن الطريق إلى استخدام الرموز المبتكرة الخالصة، لأقرب بكثير من ابتكارها، حين يكون المرء مرغماً على ذلك، وقد أُخذَ على حين غرّة. فيا للنفع الذي كان سيجنيه سندرسون لو عثر على الرياضيات جاهزة لمساً وهو في الخامسة والعشرين بدلاً من أن يكون عليه أن يتخيّلها وهو في الخامسة والعشرين! فسندرسون هذا، يا سيدتي، أعمى آخر لأنّ ما سأقوله لك عنه في غير محله. إنهم يحدّثون عنه الخوارق. وليس من إنجازاته في عالم الأدب وبراعته في العلوم الرياضية إلا ما يجعلها قابلة للتصديق.

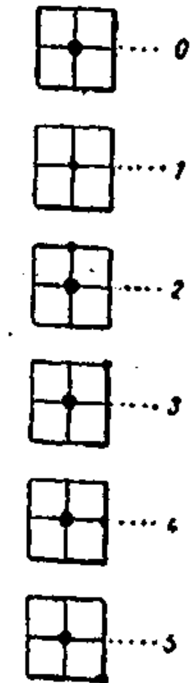
فالآلة نفسها كانت تؤدي له الحسابات الجبرية ويستخدمها لوصف الأشكال ذات الحدود المستقيمة. ولن يضيرك أن أشرحها لك، على شرط أن تكوني مستعدة لسماعها. ولسوف ترين أنها

لا تفترض أية معرفة تفتقرين إليها، وإنها ستؤدي لك نفعاً كبيراً، إذا ما راودتك الرغبة يوماً في القيام بحسابات طويلة تلمّساً.

تخيّلي مربعاً كالذي ترينه في الشكل(1) مقسماً إلى أربعة أقسام متساوية بخطّين متعامدين على الأضلاع، فيكشف لك عن تسع نقاط : 9,8,7,6,5,4,3,2,1 . هَبِي أنّ هذا المربع مثقّب بتسعة ثقوب، يدخل فيها نوعان من الدبابيس، المتساوية كلها بالطول والحجم، لكن بعضها ذا رأس أكبر بقليل من رأس البعض الآخر.

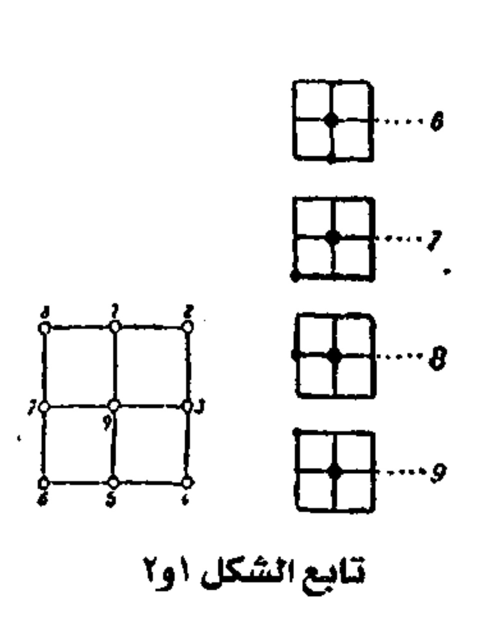
فالدبابيس ذات الرأس الكبير لا توضع قط إلا في المركز. وذات الرأس الصغير لا توضع قط إلا على الأضلاع، إلا في حالة واحدة هي حالة الصفر.

فالصفر يشار إليه بدبوس واحد برأس كبير مثبت في مركز المربع الصغير، من غير أن يكون أي دبوس برأس صغير مثبت على أحد الأضلاع. ولقد تمثّل الرقم (1) بدبوس برأس صغير ثُبِّت في مركز المربع من غير أن يكون أي دبوس آخر على الأضلاع. ومُثِّل الرقم(2) بدبوس برأس كبير في مركز المربع، ودبوس برأس صغير



الشكل ١و٢

وضع على أحـد الأضـلاع، في النقطة (1). والرقم (3) بدبوس كبير في الوسط ودبوس صغير في النقطة (2). والرقم (4) بدبوس كبير في الوسط ودبوس صغير في النقطة(3). والرقم (5) بدبوس كبير في الوسط ودبوس صغير في النقطة(4). والرقم (6) بدبوس كبير في الوسط ودبوس صغير في النقطة(5). والرقم (7) بدبوس كبير في الوسط ودبوس صغير في النقطة (6) والرقم (8) بدبوس كبير في الوسط ودبوس صغير في النقطة (7). والرقم(9) بدبوس كبير في الوسط ودبوس صغير في النقطة (8).



تابع الشكل ١و٢

تلك هي في الحقيقة عشر عبارات مختلفة باللمس، تستجيب كل واحدة منها لواحدة من أرقامنا الحسابية العشرة، فتخيلي الآن طاولة كبيرة على قدر ما تشائين، مقسمة إلى مربعات صغيرة مصفوفة أفقياً، ومفصول بعضها عن البعض الآخر بمسافات متساوية، على نحو ما ترين في الشكل (3). وهكذا تكون لديك آلة سوندرسون.

سوف توافقين بكل يسر على أنه ليس من عدد قط لا يتيسر لنا أن نكتبه على ذلك اللوح. وليس بالتالي من عملية حسابية لا نقوى على إجرائها عليه.

لنقترح على سبيل المثال، إيجاد الكمية، أو القيام بجمع الأعداد التسعة التالية:

12345
23456
34567
45678
56789
67880
78901
89012
90123

الشكل ٣

أنا أكتبها على اللوح مع توالي تعدادها. فالرقم الأول على اليسار من العدد الأول؛ أي على المربع الأول الأيسر، من السطر الأول. والرقم الثاني على يسار العدد الأول، في المربع الثاني من اليسار في السطر نفسه. وهكذا دواليك.

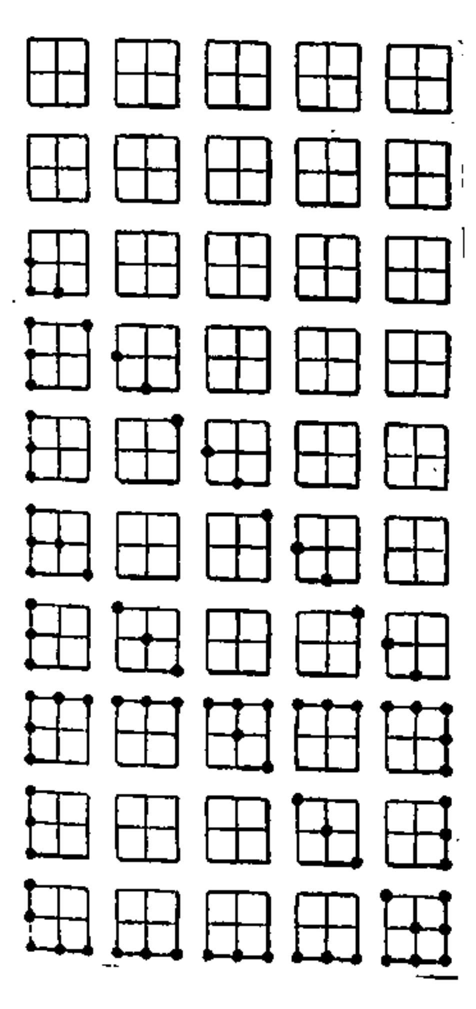
ثم أضع العدد الثاني على صف المربعات الثاني: فالوحدات تحت الوحدات والعشرات تحت العشرات، إلخ.

ثم أضع العدد الثالث على الصف الثالث من المربعات، وهكذا دواليك، على نحو ما ترين في الشكل(3). ثم أتنقّل بأصابعي على كل صف عمودي من الأسفل نحو الأعلى، بدءاً من صف

الوحدات، فأقوم بجمع الأعداد المدوّنة، وأكتب فائض العشرات في أسفل ذلك العمود. ثم أنتقل إلى العمود الثاني متقدّماً نحو اليسار. فأقوم بالعملية نفسها ثم أنتقل إلى العمود الثالث، إلى أن أنجز على ذلك النحو عملية الجمع التي أقوم بها.

وإليك كيف كان يفيده اللوح نفسه في البرهان على خصائص الأشكال المحدودة بخطوط مستقيمة. لنفرض أن عليه أن يبرهن على أن متوازيات الأضلاع التي لها نفس القاعدة ونفس الارتفاع، تتساوى في المساحة. كان يضع دبابيسه على نحو ما ترين في الشكل(4). فكان يسمّي نقاط الزوايا، وينُجز البرهان بأصابعه.

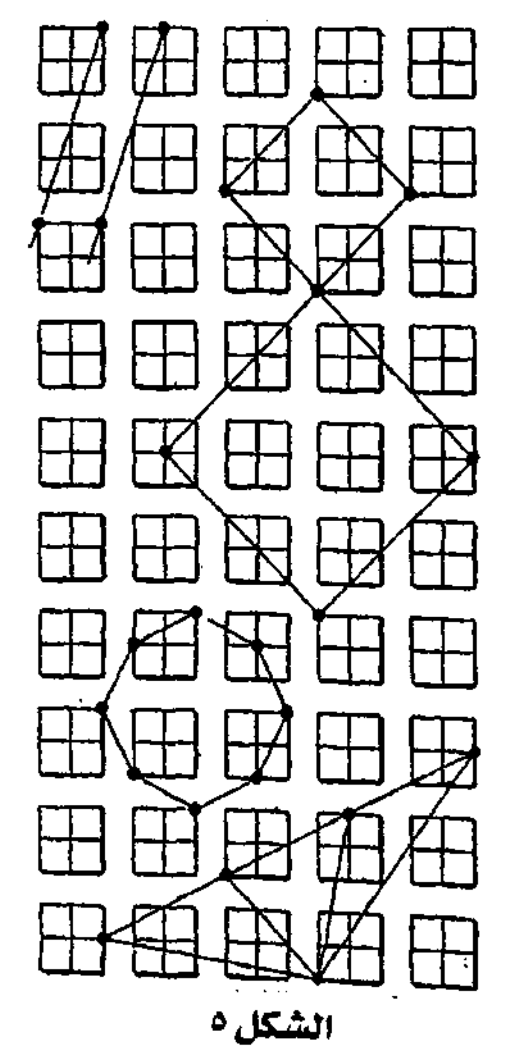
ولنفرض أن سوندرسون لم يستخدم إلا دبابيس برأس كبير للدلالة على حدود أشكاله، لقد كان بوسعه أن ينسّق حولها دبابيس صغيرة بتسع طرق مختلفة، وكانت كلها مألوفة لديه. وعليه



الشكل ٤

فلم يكن يعاني من أي ضيق حين كان العدد الكبير من نقاط الزوايا التي كان عليه أن يسميها من أجل برهانه، يجبره على اللجوء إلى حروف الأبجدية. لكن ليس من يُعلِمْنا البتّة كيف كان يستخدمها.

نحن نعرف فقط أنه يتصفّح لوحه بأنامله بخفة مذهلة. وأنه كان ينخرط بكل نجاح في أكثر العمليات الحسابية طولاً. وكان بوسعه أن يقطعها فيعرف أين أخطأ. ويتحرّاها بكل يسر. وأن ذلك العمل لم يكن يتطلب منه، باختلافات كبيرة، ما قد يخطر ببال المرء من الوقت، بسبب ما لديه من طواعية في إعداد لوحة.



الشكل ٥

كان الإعداد يقوم على وضع دبابيس كبيرة في مركز المربعات كلها. فلا يبقى عليه، بعد ذلك، غير تحديد قيمتها بالدبابيس الصغيرة، باستثناء الحالات التي تستلزم كتابة وحدة. عندئذ كان يضع في مركز المربع دبوساً صغيراً، بدلاً من الدبوس الكبير الذي كان يحتله.

في بعض الأحيان، وبدلاً من أن يشكّل خطاً كاملاً بدبابيسه، كان يكتفي بأن يضع

بعضها في كافة نقاط الزوايا أو نقاط التقاطع، فيثّبت من حولها خيوطاً حريرية تؤدي إلى إنجاز حدود أشكاله. فانظري الشكل5. لقد خلّف بعض الآلات الأخرى التي تسهِّل عليه دراسة الهندسة: وإننا لنجهل استخدامه الحقيقي لها. وقد يكون في العثور على ذلك من الفطنة أكثر مما في حلّ هذه المسألة أو تلك من الجمع المتكامل. ويسعى بعض المهندسين إلى إعلامنا بمَ كانت تفيده أربع قطع صلبة من الخشب، على شكل متوازي المستطلات، وكل قطعة بطول إحدى عشرة بوصة وعرضها خمس ونصف ويزيد سمكها على نصف بوصة بقليل، والسطحان العريضان من كل قطعة مقسّمان إلى مربعات صغيرة مماثلة لمربعات اللوح الذي أتيت على وصفه مع الفارق في أنها لم تكن مثقبة إلاّ في بعض الأماكن وقد انغرست فيها دبابيس صغيرة حتى رأسها. كان كل سطح يمثل تسعة جداول حسابية صغيرة، وكل واحد من عشرة أعداد. ويتألف كل واحد من هذه الأعداد العشرة من عشرة أرقام. ويمثل الشكل(6) واحداً من تلك الألواح الصغيرة. وإليك الأعداد التي كان يحملها.

94084
24186
41792
54284
63968
71880
78568
94358
89464
94030

الشكل ٦

ولقد ألّف كتاباً جاء متكاملاً جداً في نوعه: إنها **مبادئ الجبر**، التي لا يلحظ المرء فيها أنه أعمى إلاّ من خصوصيّة بعض البراهين التي ما كان لإنسان يبصر أن يصادفها. وله يعود تقسيم المكعّب إلى ستة أهرامات متساوية تتلاقى رؤوسها في مركز المكعَّب وقواعدها كل وجه من وجوه المكعَّب. وتستخدم للبرهان بصورة بسيطة جداً على أن كل هرم ثلث موشور من نفس القاعدة ونفس الارتفاع.

وقد انساق بدافع ميله لدراسة الرياضيات، فقرّر بسبب ضحالة ثروته وبنصائح أصدقائه، أن يعطي دروساً عامة فيها. ولم يخامرهم الشك مطلقاً في أن نجاحه سيتجاوز الآمال، للسهولة الخارقة التي كان يتمتع بها لاجتذاب الانتباه. والواقع أن سوندرسون، كان يخاطب تلاميذه وكأنهم فاقدو البصر: غير أن الأعمى الذي يجيد التعبير بوضوح للعميان لابدّ أن يكسب الكثير في مخاطبة الناس الذين يبصرون. إن لديهم منظاراً إضافياً.

يقول الذين كتبوا سيرته إنه كان يُغْني حديثه بالتعابير الموفَّقة. وذلك شديد القرب إلى الحق. وقد تسألني قائلة: لكن ماذا تقصد بالتعابير الموفّقة؟ فأجيبك، يا سيدتي، إنها التعابير الخاصة بحاسة ما، كاللمس مثلاً، وهي في ذات الوقت مجازية بالنسبة لحاسة أخرى، مثل النظر. فينجم عن ذلك نور مزدوج بالنسبة لمن يتوجّه الكلام إليه: نور التعبير الحقيقي والمباشر والنور المعكوس من الاستعارة. وإنه لأمر حتمي، أن سوندرسون، مع كل ما كان يتمتع به من فطنة،

لم يكن تفاهمه في تلك المناسبات إلا بمقدار النصف، لأنه لم يكن يدرك سوى نصف الأفكار المرتبطة بالتعابير التي يستخدمها. ولكن من هو الذي لا يجد نفسه بين وقت وآخر في حال مماثلة؟ فهذا العارض مألوف لدى الحمقى، الذين يتفوّهون أحياناً بفكاهات بديعة، ولدى الأشخاص ذوي الذكاء اللامع، الذين تصدر عنهم حماقة، من غير أن يتنبّه إلى ذلك هؤلاء وأولئك.

لقد لاحظت أن الافتقار إلى الكلمات يفعل الفعل نفسه في الغرباء الذين لم يألفوا اللغة بعد: إنهم مرغمون على قول كل شيء، بكمية ضئيلة جداً من العبارات، مما يرغمهم على استخدام البعض منها بطريقة متقنة جداً. لكنّ كل لغة تفتقر بصورة عامة إلى الكلمات الخاصة بالكتّاب ذوي المخيلة النشيطة جداً، فهم في نفس حال الغرباء ذوي الفطنة الكبيرة: فالأوضاع التي يبتكرونها، والفروق الدقيقة التي يلمحونها في الطبائع، وسذاجة الصور التي عليهم أن ينفّذوها، تبعدهم في كل لحظة عن طرائق الكلام الاعتيادية، وتجعلهم يعتمدون صياغات في التعابير تبدو مدهشة حين تبتعد عن الحذلقة وعن الغموض. وهي عيوب تُغْتَفَر لهم بشيء من الصعوبة، وفقاً لما يتحلّى به المرء نفسه من فطنة، مع قلة دراية باللغة. فذلك هو السبب الذي يجعل السيد م... محبباً إلى الإنكليز أكثر من كافة الكتاب الفرنسيين، والذي يجعل **المفكرين** يحملون وداً زائداً لتاسيت (TACITE) من بين كافة المفكرين اللاتين. إنّ جوازات اللغة تفلت منا؛ ووحده تنوّع التعابير يؤثّر فينا.

درَّس سوندرسون الرياضيات في جامعة كمبريدج بنجاح مدهش. وألقى دروساً في البصريات. وقدَّم محاضرات حول طبيعة الضوء والألوان. وشرح نظرية الإبصار. وعالج آثار العدسات وظواهر قوس قزح ومواد أخرى عديدة خاصة بحاسة البصر وعضوها.

سوف تفقد هذه الوقائع الكثير من روعتها، إذا ما تفكّرت، يا سيدتي، في أنّ هنالك أشياء ثلاثة ينبغي تمييزها في كل مسألة ذات صلة بالفيزياء والهندسة: الظاهرة المراد شرحها، وفرضيات المهندس، والحساب الناجم عن الفرضيات. يبقى من البدهي بالنسبة للأعمى، مهما تكن فطنته، أن ظواهر الضوء والألوان تظل مجهولة. سوف يدرك الفرضيات لأنها متعلقة كلها بعلل قابلة للجسّ، لكنها لا تشكل على الإطلاق سبباً لكي يفضّلها المهندس على سواها: لأن عليه أن يقوى على مقارنة الفرضيات مع الظواهر. إذن يأخذ الأعمى بالفرضيات على مثل ما تُعطى له، فشعاع من ضوء مثل خيط مطاطي دقيق أو هو متوالية من أجسام ضئيلة تأتي فتصيب أعيننا بسرعة لا تصدق؛ وعليه يقومُ بحساباته. فالممرّ من الفيزياء إلى الهندسة تم عبوره وأضحت المسألة رياضية برمّتها.

لكن ما الذي ينبغي علينا أن نراه في نتائج الحساب؟ ١ً- أن الحصول عليها أمر فائق الصعوبة في بعض الأحيان، وأنّ فيزيائياً ما سيسعد بلا طائل وهو يتخيّل الفرضيات الأكثر توافقاً مع الطبيعة، ما لم يجد إبرازها عن طريق الهندسة: لذلك السبب كان الفيزيائيون

الكبار مثل غاليليه وديكارت ونيوتن من كبار المهندسين. ٢- أن تلك النتائج مؤكدة إلى حدّ ما، وتماثل في ذلك درجة تعقيد الفرضيات التي كان منها الانطلاق. فحين يقوم الجمع على فرضية بسيطة، تكتسب النتائج حينئذ قوة البراهين الهندسية. أما حين يكون لدينا عدد كبير من الفرضيات، فالظاهر أنّ كل فرضية صحيحة، ينْقُص بالنظر إلى عدد الفرضيات، لكنّه يزداد من ناحية أخرى بفعل ضآلة الاحتمال من أن يمكن لذلك الكمّ من الفرضيات الخاطئة أن يصحّح بعضُه البعض الآخر تصحيحاً مضبوطاً، وأن نخرج منه بنتيجة تؤكّدها الظواهر. وسوف يكون الوضع في هذه الحال مماثلاً لعملية جمع نتيجتها صحيح، رغم أن الكميات الجزئية للأعدادالمضافة أُخِذَت كلّها على نحو مغلوط. ولا يسعنا أن نرفض أن تكون تلك العَملية ممكنة. غير أنك ترين في الوقت عينه أنها بالضرورة نادرة جداً. وكلما كانت هنالك أعداد تضاف، كان دليلٌ على عدم وقوع خطأ في جمع كل واحد منها: لكن الدليل سيكون أيضاً أقل ظهوراً، إن كانت نتيجة العملية صحيحة. هنالك إذن عدد من الفرضيات كما سيكون اليقين الناجم عنها في أصغر حدّ ممكن. وإذا ما جعلت أ زائد ب زائد حـ مساوية لـ ٥٠، فهل أستنتج أن ٥٠ هي في الواقع كميةُ الظاهرة، وأن الفرضيات المتمثلة بالحروف أ و ب، وحـ، هي صحيحة؟ على الإطلاق. لأن هنالك ما لا نهاية من الطرق لأن آخذ من أحد هذه الحروف ما أضيفه إلى الحرفين الآخرين، ولأجدها في نهاية المطاف تساوي ٥٠ بصورة دائمة. لكن حالة الفرضيات الثلاث المنسَّقة قد تكون من أكثر الحالات المعاكسة.

أما فائدة الجمع التي لا ينبغي عليّ إهمالها، فهي استبعاد الفرضيات المغلوطة، عبر التعارض القائم ما بين النتيجة والظاهرة. فإذا ما نوى فيزيائي ما أن يعثر على المنحني الذي يتبع شعاعاً يخترق الجو، فهو ملزم بأن يذعن لكثافة طبقات الهواء، ولقانون انكسار الأشعة، ولطبيعة الجسيمات المضيئة وشكلها، وربما لعناصر أساسية أخرى لا يدخلها ضمن حسابه مطلقاً، إما لأنه يهملها إهمالاً إرادياً وإما لأنها مجهولة من قبله. ويُحدَّد من بعدُ انحناءُ الشعاع. فهل هو مغاير في الطبيعة لما يعطيه إياه حسابه؟ وهل فرضياته غير كاملة أومغلوطة؟ وهل يتخذ الشعاع الانحناء المحدّد؟ ينجم عن ذلك واحد من أمرين: إما أن الفرضيات قد تعاظمت، أو أنها مضبوطة. لكن أيّ الاثنين؟ إنه يجهله: إلا أن ذلك هو اليقين الوحيد الذي يستطيع بلوغه.

قمت باستعراض **مبادئ الجبر** لسوندرسون، آملاً أن ألتقي فيها بما كنت راغباً في أن أعرفه من الذين قاربوه بلا كلفة والذين أحاطونا علماً ببعض خصائص حياته. لكن خاب ظني. وأدركت أن عناصر الهندسة، مكتوبةً على طريقته، من شأنها أن تكون مؤلَّفاً أكثر تفرّداً في ذاته، وأكثر فائدة بكثير بالنسبة لنا. كنا سنعثر فيها على تعاريف النقطة والخط والسطح والمجسّم والزاوية وتقاطع الخطوط والسطوح، والتي لا أشك مطلقاً في أنه سيستخدم مبادئ تفسيرات فلسفية شديدة التجريد وقريبة جداً من تفسيرات المثالين. ويطلق اسم **مثاليين** على أولئك الفلاسفة الذين، وهم لا يعون سوى وجودهم

وأحاسيسهم التي تتوالى في داخل أنفسهم، لا يقبلون بشيء آخر: إنه نظام مخالف للصواب، لا يمكنه أن يدين بنشوئه، على ما أرى، إلا للعميان. إنه نظامُ عارٍ على الفكر الإنساني وعلى الفلسفة، لكن محاربته غاية في المشقّة، على الرغم من أنه الأكثر منافاة للعقل. وهو معروض بمنتهى الصراحة والوضوح في حواراتٍ ثلاثة للفقيه بيركلي، اسقف كلوين: ينبغي دعوة مؤلف **البحث** حول معارفنا ليقوم بتفحص ذلك المؤلَّف. فقد يقع فيه على مادة لملاحظات مجدية ومستحبة وذكية، وباختصار على نمط ما يجيد فعله. ويجدر بالمثالية أن يُنَدَّد بها لديه. ففي هذه الفرضية ما يضيره، وليس ذلك بتفرّده على قدر ما هو في صعوبة دحضها في مبادئها، لأنها هي نفسها بالتحديد مبادئ بيركلي. ووفقاً لهذا وذاك، وعلى هدي من العقل، فإن تعابير: جوهر، ومادة، وكنه، وتابع، إلخ ...، لا تحمل من أنوار بذاتها إلى فكرنا على الإطلاق. والواقع أن كاتب **بحث حول أصل المعارف الإنسانية** يلاحظ بنباهة، أننا إما أن نتسامى حتى السماء، وإما أن ننحدر حتى المهاوي، ولا نخرج من ذواتنا أبداً. ولا نلمح سوى فكرتنا الخاصة بنا: إلاّ أن تلك هي النتيجة لحوارية بيركلي الأولى، ولأساس نظامه كله. ألا تستثير فضولك مشاهدة عدوين اثنين يتنازعان، وأسلحتهما متماثلة تماثلاً شديداً؟ وإذا ما كان النصر بجانب أحدهما، فلن يكون إلا لمن أجاد استخدامها على النحو الأفضل. غير أن مؤلف **بحث حول أصل المعارف الإنسانية**، قد قدّم مؤخراً في **بحث حول المنظومات** براهين

جديدة على المهارة التي يجيد بها استخدام أسلحته، وبيّن كم هو مرهوب الجانب حيال علوم التصانيف.

قد تقولين كم أضحينا بعيدين عن أصدقائنا العميان. لكن ينبغي أن تجودي عليّ يا سيدتي بتجاوز تلك الاستطرادات كلها: فقد وعدتك بحديث مطول، ولا يسعني أن أفي بوعدي دون ذلك التسامح.

قرأت بكل ما أقوى عليه من انتباه ما قال سوندرسون عن اللانهاية. وأؤكّد لك إنّه كانت لديه حول ذلك الموضوع أفكار شديدة الصحة وشديدة الوضوح، وإن أكثرية أصحابنا **اللانهائيين** ما كانوا حياله أكثر من عميان. وليس عليك سوى أن تحكمي بنفسك على ذلك: مهما تكن تلك المادة صعبة وتمتد قليلاً إلى ما وراء معارفك الرياضية، فلن أيأس وأنا أستعدّ لذلك، من وضعها في متناول يدك وفي تعليمك المبادئ الأولية لذلك المنطق المتناهي في الصغر.

يبرهن مثال ذلك الأعمى الشهير على أن اللمس يمكن أن يغدو أكثر حساسية من البصر، بعد أن يكتمل بالمران. ذلك أنه وهو يمرّ بكفيه على سلسلة من المداليات، كان يميزّ السليمة من المزوّرة، على الرغم من أن هذه الأخيرة زُوِّرت بإتقان كبير لتخدع خبيراً يتمتّع بعينين سليمتين. كما كان يحكم على إتقان آلة حسابية، من مروره بأنامله على تقسيماتها. وتلك هي بالتأكيد أشياء أكثر صعوبة على التحقيق من أن يقدِّر المرء باللّمس مدى الشبه بين جذع تمثال والشخص الذي يمثله. فنخلص من هنا إلى أن شعباً من العميان يمكن

أن يكون لديه مثّالون، وأن تتحقّق له من التماثيل المنفعة نفسها التي نجنيها نحن منها، وهي إدامة ذكرى المكْرُمات وذكرى الأشخاص ذوي المكانة الخاصة في النفوس. بل لست في شك من أن الإحساس الذي سينتابهم لدى لمس التماثيل سيكون أكثر حدّة بكثير من إحساسنا ونحن نراها، وأية عذوبة سيشعر بها عاشق، عرف الحب بأعمق جوارحه، وهو يمرّ بيديه على مفاتن فيتعرّف عليها، حينما يأتي الوهم الذي ينبغي أن يؤثّر في العميان بقوة أكبر من تأثيره في المبصرين، ليبعث الحياة في تلك المفاتن! بل من الممكن أيضاً، كلما كانت متعته في تلك الذكرى أكبر، أن تقلّ معها حسراته عليها.

كان سوندرسون يشترك مع أعمى بويزو، في تأثّره بأصغر تقلّب من تقلبات الطقس التي تطرأ على الجو، وفي ملاحظته، لا سيما في الأجواء الهادئة، بوجود أغراض لم يكن بعيداً عنها إلا مسافة بضع خطا. قيل يوماً إنّه كان يحضر عمليات مراقبة فلكية، تجري داخل حديقة، والغيوم تحجب بين فينة وأخرى قرص الشمس عن عيون المراقبين، فتتسبّب في تغيّر ملموس لتأثير الأشعة على وجهه، ولتبيّن له الأوقات الملائمة لعمليات المراقبة أو غير الملائمة. ولسوف تصدقين أنه كان يحدثُ في عينيه اهتزازٌ ما كفيلٌ بإعلامه بوجود الضوء، وليس بوجود الأغراض. وكنت سأصدق مثلك، لو لم يكن معلوماً علم اليقين أن سوندرسون لم يكن محروماً من البصر فقط، وإنما من عضو البصر.

كان سوندرسون يرى إذن بواسطة الجلد [1]. فذلك الغلاف لديه ذو حساسية على درجة من الرهافة، حتى ليسع المرء التأكيد إنه كان سيتوصل بشيء من التعوّد إلى التعرّف على واحد من أصدقائه، فيما يقوم رسام بتخطيط ملامحه فوق كفّه، وإنه كان سيهتف، إثر توالي الأحاسيس التي يثيرها القلم: **إنه السيد فلان**. هنالك إذن تصوير خاص بالعميان، يُستخدم فيه جلدهم أرضيّة للصورة. وما هذه الأفكار إلا قصيرة الباع في أوهامها، حتى أني لا أشك مطلقاً، في أنك ستتعرّفين فوراً على فم م... الصغير فيما لو قام أحدهم بتخطيطه فوق كفّك. وسوف توافقين على أن ذلك سيكون أكثر يسراً أيضاً بالنسبة لأكمهٍ مما هو بالنسبة لك، على الرغم من تعوّدك على رؤيته وأنك تجدينه فاتناً، ذلك أن حكمك يداخله شيئان أو ثلاثة: مقارنة الصورة التي رسمت على كفك بالصورة التي رسمت في داخل عينك. ذاكرة الطريقة التي نتأثر بها بالأشياء التي نحس بها، وذاكرة الطريقة التي نتأثر بها بالأشياء التي اكتفينا برؤيتها والإعجاب بها. وهنالك أخيراً تطبيق تلك المعطيات على السؤال الذي يلقيه عليك الرسام وهو يسألك، فيما هو يخط فماً على جلد كفك برأس قلمه: **فَمُ منْ هذا الذي أرسمه؟** بدلاً من أن تكون كمية الأحاسيس التي يثيرها فم مرسوم على كفّ إنسان أعمى مساوية لكمية الأحاسيس المتوالية التي أيقظها قلم الرسام وهو يقوم بتمثيله له.

---

(١) استبق ديدرو «الرؤية فوق الشبكية» لجول رومان.

أستطع أن أضيف إلى قصة أعمى بريزو وسوندرسون، قصة ديديم من الاسكندرية وإيوسيب الآسيوي، ودونيكيز دوميشلين، وبعض الآخرين الذين ظهروا ببروز شديد فوق مستوى باقي البشر، وبهم حاسة ناقصة، حتى أمكن للشعراء أن يزعموا، دون مبالغة، أن الآلهة، وقد أحست بالغيرة، حرمتهم منها خشية أن ترى من يساويها بين البشر الفانين. إذ ما كانت عليه حقيقة تيريزياس ذاك، الذي قرأ في أسرار الآلهة، والذي امتلك موهبة التنبؤ بالمستقبل، سوى فيلسوف أعمى احتفظت لنا الأسطورة بذكراه؟ لكن دعينا نبقى قريباً من سوندرسون فنتابع هذا الرجل الخارق حتى اللحد.

حين حَضَرته الوفاة، دُعي إليه وزير ذو فطنة، هو السيد جرفيز هولمز. فدار بينهما حديث حول وجود الإله، لم يبق لنا منه سوى بعض النتف التي سأترجمها لك على قدر المستطاع، لأنها ذات قيمة حقيقية. بدأ الوزير يعرض عليه عجائب الطبيعة. فقال له الفيلسوف الأعمى: «آه، يا سيدي، دع جانباً ذلك المشهد الجميل كله، والذي لم يُصنع قط من أجلي! فقد حكم علي بأن أقضي حياتي وسط الظلمات. وأنت تسرد على مسمعي معجزات لا أفقه منها شيئاً أبداً، والتي لا تقدّم من برهان إلا لك وللذين يبصرون من أمثالك. فإن تشأ أن أؤمن بالله، عليك أن تجعلني ألمسه».

فردّ عليه الوزير بذكاء قائلاً: يا سيدي، تلمّس نفسك بيديك تلق الألوهية في الآلية المدهشة لأعضائك. فاستأنف سوندرسون قائلاً:

- يا سيد هولمز، أكرّر عليك القول، إنّ ذلك كله ليس جميلاً بالنسبة لي كما هو بالنسبة لك. فبمَ تشترك الآلية الحيوانية، ومهما تكن درجة كمالها، وفق ما تدّعي وما أرغب حقاً في الإيمان به، ذلك أنك إنسان مستقيم ولا ترغب في أن تفرض علي رأيك فرضاً، بِمَ تشترك مع كائن ذكي غاية الذكاء؟ إن كانت تدهشك، فربما لأنك تعوّدت أن تصف بالإعجاز كل ما يبدو لك فوق مستوى قواك. ولقد كنت في الغالب موضع إعجابك، حتى صرت أحمل فكرة سيئة عما يثير دهشتك. لقد اجتذبتُ إلي من أطراف إنكلترة أناساً ما كان بوسعهم أن يدركوا كيف أعالج الهندسة: عليك أن تدرك أن أولئك الناس لم تكن لديهم أية مفاهيم دقيقة عن إمكانية الأشياء. هل هذه الظاهرة، حسب رأينا، فوق مستوى الإنسان؟ إننا نقول على الفور:

هذا من صنع الله. فغرورنا لا يرضى بما هو أدنى. ألا يسعنا أن نضمّن أحاديثنا مقادير أدنى من العجرفة، وشيئاً أكثر من الفلسفة؟ وإذا ما قدّمت لنا الطبيعة عقدةً عَجِزْنا عن حلّها، فلندعها على حالها؛ بدلاً من أن نستخدم لقطعها يد كائن يغدو من بعد، بالنسبة لنا، عقدةً أشدَّ إعجازاً من الأولى. اسأل هندياً لِمَ يظل العالم معلّقاً في الهواء، يَقُلْ لك إنه محمول على ظهر فيل. وعلام يعتمد الفيل؟ على ظهر سلحفاة. والسلحفاة، من يقوم بحملها؟ ... ذلك الهندي يستثير شفقتك. ومن الممكن أن يقال لك كما يقال له: أيها السيد هولمز، يا صديقي، اعترف بادئ ذي بدء بجهلك، واعفني من السلحفاة والفيل.

توقّف سوندرسون هنيهة عن الكلام: كان يتوقّع على ما يبدو أن يردّ الوزير عليه. ولكن أنّى لكِ أن تنالي من أعمى؟ كان السيد هولمز يفيد من الفكرة الحسنة التي تشكلت لدى سوندرسون عن نزاهته، ومن معارف نيوتن ولايبنتز وكلارك وبعض من مواطنيه، وهم أوائل عباقرة العالم، الذين فعلت عجائب الطبيعة فعلها في نفوسهم جميعاً ويعترفون بكائن ذكي هو صانعها. وكان ذلك، دون ريب، ما يستطيعُ الوزير أن يعارض به سوندرسون معارضة قوية. وعليه فقد وافق الأعمى الصالح على أن من التهوّر إنكار مالم يتوان رجل مثل نيوتن على إجازته. غير أنه عرض للوزير أن شهادة نيوتن لم تكن قوية بالنسبة له قوّة الطبيعة كلها بالنسبة لنيوتن. وأن نيوتن كان يؤمن بموجب كلام الله، في حين أنه هو كان ملزماً بالإيمان بموجب كلام نيوتن.

وأضاف من بعد قائلاً: قدّر، يا سيد هولمز، كم ينبغي لي أن أثق بكلامك وكلام السيد نيوتن. فأنا لا أرى من شيء، وأقرّ مع ذلك بنظام كلي مدهش. لكني أحسب أنك لن تتوقع أكثر. فأنا أسلّم لك بحالة الكون الراهنة، لأنال منك بالمقابل حرية التفكير في كل ما يروقني بشأن حاله القديم، بشأن حالته الأولى، والتي لستَ حيالها أقل عمىً مني. فليس لديك في هذا الميدان من شهود تعارضني بهم. ولا تقدم لك عيناك أي نفع يذكر. تخيّل إذن، إذا ما شئت، أن النظام الذي يدهشك كان موجوداً على الدوام. لكن دعني أعتقد بأن الأمر لم يكن كذلك. وأننا فيما لو رجعنا إلى بدء الأشياء

والأزمنـة، وأحسسنا بالمادة تتحرك والسديمُ ملامُحه تتضح، لصادفنا عـدداً وافـراً من الكائنات الشـوهاء مقـابل بضع كـائنات حسنة التناسق. وإذا لم يكن لدي مـا أعـارضك به حـول وضع الأشيـاء الراهن، فيسعني على الأقل أن أستجوبك بشأن وضعها السابق. يسعني أن أسألكم على سبيل المثال، أنت ولايبنتز وكلارك ونيوتن، من قال لكم إن الحيوانات، في الأزمنة الأولى من تشكلها، لم يكن البعض منها بلا رأس والبعض الآخر بلا أرجل؟ أستطيع أن أؤكد لكم إنّ منها ما كان بلا معدة ومنها ما كان بلا أمعاء. وإن البعض الذي بدا موعوداً بديمومة طويلة بوجود معدة وحنك وأسنان قد قضى بفعل خلل مـا في القلب أو في الرئتين. وإن الأشكال الشوهاء بادت على التوالي. وإن التنظيمات الفاسدة للمادة تلاشت كلّها فلم يبق منها سوى تلك التي لا يتطلب جهازها أي شرط هام والتي تستطيع البقاء والاستمرار من تلقاء نفسها.

«إذا أتّبعنا بهذه الفرضية أن الإنسان الأول كان ذا حنجرة مسدودة، أو أنه افتقر للأغذية الملائمة، أو أنه أخل بأجهزة تناسله، فلم يلتق برفيقته، وضرب في أحد الأجناس الأخرى، فماذا كان مصير الجنس البشري، يا سيد هولمز؟ كان سيقع ضمن غلاف النقاء العام للكون. ولكان ذلك الكائن المتعجرف المدعو بالإنسان، والذي انحل وتبعثر فيما بين ذرات المادة، قدظلّ، ربما إلى الأبد، في عداد الممكنات.

لو لم يكن هنالك من كائنات مشوهة البتة، لما توانيتم عن الادعاء بأنها لن تكون أبداً، وأنني أخوض في فرضيات وهمية. لكن النظام ليس كاملاً إلى حد لا تظهر معه بين وقت وآخر بعض النتاجات الشوهاء.» وبعد أن قال سوندرسون ذلك، استدار ناحية الوزير وأضاف: «انظر إلي، يا سيد هولمز، فليس لي من عينين البتة. فماذا فعلنا أنا وأنت، حيال الله، ليكون أحدنا متمتِّعاً بهذا العضو، ويكون الآخر محروماً منه؟»

كان سوندرسون، وهو يتفوّه بتلك الكلمات على درجة من الصدق والإيمان العميق، لم يتمالك معها الوزير والمشاركون الآخرون في الجلسة أنفسهم من مشاطرته ألمه، فانخرطوا في بكاء مرير. ولاحظ الأعمى ذلك فقال للوزير: يا سيد هولمز، طيبة قلبك شيء معروف لدي تماماً، وأنا شديد التأثُّر بالبرهان الذي قدمته لي في هذه اللحظات الأخيرة: لكن إذا ما كنتُ غالياً على قلبك، فلا تغبطني وأنا أموت على العزاء في أني لم أسبِّب الغمّ يوماً لأحد [1].»

وأضاف من ثمّ بلهجة حازمة بعض الشيء: «أظن إذن، في البداية، وفيما تعمل المادة، وهي في حالة تخمّر، على تفتّح

(١) هنا يلتقي بطل ديدرو بأبي العلاء: فمن كتب أبي العلاء المفقودة كتاب «القائف» وضعه على ألسنة الحيوانات، لم تصلنا منه سوى متفرِّقات. منها: «حضرت النملة الوفاة. فاجتمع حواليها النمل. فقالت نادبتها: يرحمك الله، أمِنْ برَّة مجرورة، وآثار سفرة منثورة. فقالت لهن: لا تجزعن. فقد دخرت عند الله ذخيرة، من دخر مثلها كان جديراً بالجنة، وذلك أني لم أسفك دماً قط.» م.

الكون، أن أمثالي شائعون جداً. ولكن لِمَ لا أجزم بشأن العوالم ما أقوله جازماً عن البهائم؟ فكم من العوالم المشوّهة والمنقوصة، تشتّتت، لتتشكّل فتتبعثر، وربما في كل لحظة داخل فضاءات مترامية، لا أستطيع لمسها، ولا أنتم ترونها، لكن الحركة فيها متواصلة، وسوف تواصل التنسيق بين كميات هائلة من المادة، إلى حين أن تحصل على تسوية ما تستطيع فيها أن تستمر؟ إيه أيها الفلاسفة! انتقلوا معي إلى تخوم هذا الكون، إلى ما وراء النقطة التي ألمسها والتي تشاهدون فيها كائنات منظمّة. تجوّلوا فوق ذلك المحيط الجديد وابحثوا عبر اضطراباته الفوضوية على شيء من بقايا ذلك الكائن الذكي الذي تتأمّلون هنا حكمته بإعجاب.

ولكن ما النفع في أن أحرركم من عنصركم؟ وما حقيقة هذا العالم، يا سيد هولمز؟ إنّه مركّب، عرضة لثورات، توحي كلها بميل دائم نحو الدمار. إنه متوالية سريعة من كائنات تتابع، فتتدافع فتتوارى: تناظر عابر ونظام آني. أخذتُ عليكم قبل قليل اعتباركم الكمال في الأشياء. اعتماداً على قدرتكم. ويسعني هنا أن أتهمكم بأنكم تقيسون فترتها استناداً لأيّامكم. أنتم تحكمون على الوجود المتوالي للعالم، مثل حكم الذبابة العابرة على وجودكم. فالعالم أبديّ بالنسبة لكم، مثلما أنتم أبديّون بالنسبة للكائن الذي لا يعيش سوى لحظة: بل إن الحشرة أكثر عقلانية منكم. فأية متوالية عجيبة من الأجيال ومن الذباب العابر تبرهن على أبديتكم؟ وأي تقليد شائع؟ ومع ذلك فنحن كلنا سوف نعبر من غير أن نقوى على تعيين الامتداد

الحقيقي الذي نشغله أو الزمن الدقيق الذي استغرقناه. فقد لا يكون الزمن والمادة والمكان سوى نقطة واحدة».

لقد اضطرب سوندرسون أثناء ذلك الحديث أكثر مما تسمح به حاله بقليل. فانتابه هذيان دام بضع ساعات، ولم يخرج منه إلا ليهتف: **«يا إله كلارك ونيوتن، حنانَيْكَ ورُحماك»** وأسلم الروح.

على ذلك النحو انتهى سوندرسون. وأنت ترين، يا سيدتي، أن كافة الحجج التي عارض بها الوزير لم تكن قمينة بطمأنة رجل أعمى. فيالَخَزْيِ الناس الذين ليس لديهم من حجج أفضل منه، ويبصرون، والذين يعلن لهم مشهد الطبيعة المدهش، منذ شروق الشمس حتى غياب أصغر النجوم، عن وجود صانعه وعن عظمة مجده! فلهم عيون كان سوندرسون محروماً منها. لكن سوندرسون كان يتمتع بصفاء في الأخلاق وفطنة في الطبع، يفتقرون هم إليهما. لذا يعيشون عمياناً ويموت سوندرسون كأنّه كان مبصراً. فصوت الطبيعة مسموع عنده بما يكفي عبر الأعضاء المتبقية لديه، ولن تكون شهادته إلا أكثر قوة ضد الأشخاص الذين يغلقون عيونهم وآذانهم بكل عناد. وإني لأتساءل بطيب خاطر ما إذا كان الإله الحقيقي محجوباً عن سقراط بفعل ظلمات الوثنية، بأكبر مما كان عن سوندرسون عبر حرمانه من البصر ومن مشهد الطبيعة.

وإنه ليضيرني كثيراً، يا سيدتي، إرضاء لك ولنفسي، أنهم لم ينقلوا إلينا عن ذلك الأعمى الشهير خصائص أخرى تستأثر

بالاهتمام. فقد يكون هنالك من الأنوار التي تستخلص من أجوبته، ما يفوق كافة التجارب المقترحة. وكان ينبغي على الذين عايشوه أن يكونوا أقل ضلوعاً في الفلسفة! غير أني أستثني تلميذه، السيد ويليام انشليف، الذي لم يرَ سوندرسون إلا في أيامه الأخيرة، والذي التقط لنا آخر أقواله، حتى أني أنصح كافة الذين لديهم شيء من الإلمام بالإنكليزية أن يقرؤوا النص الأصلي من مؤلفه المطبوع في دبلن: حياة الدكتور نيكولاس سوندرسون... بقلم تلميذه وصديقه ويليام انشليف. ولسوف يلحظون فيه من المتعة والقوة الحقيقية والعذوبة، مالا يقعون عليه في أية حكاية أخرى، والتي لا أزعم أنني أديتها حقها وأنا أنقلها لك، رغم كافة الجهود التي بذلتها للحفاظ عليها في ترجمتي.

تزوج عام ١٧١٣ من ابنة السيد ديكونس، مدير بوكسورث، في مقاطعة كمبردج. ورزق منها بولد و بنت ما يزالان على قيد الحياة. أما وداعه الأخير لأسرته فمؤثر جداً. قال لهم: «إني ذاهب إلى حيث نحن جميعاً ذاهبون. فوفروا عليّ أشكال النواح التي تثير شجوني. فمظاهر الألم التي تحيطوني بها تجعلني أكثر حساسية حيال أخرى تفوتني. وأنا أتخلى من غير عناء عن حياة لم تكن لي سوى رغبة طويلة وحرماناً متواصلاً. عيشوا على الفضيلة نفسها وبسعادة أكبر، وتعلموا أن تموتوا بالطمأنينة نفسها.» وأمسك من بعد بيد زوجته فشدّ عليها هنيهة بيديه: واستدار ناحيتها كأنه

يسعى إلى رؤيتها . وبارك ولديه ثم قبّلهم جميعاً ورجاهم أن ينسحبوا، لأنهم يُلحِقون بروحه من الضير العنيف ما يفوق اقتراب الموت .

إن إنكلترا بلد الفلاسفة ومثيري الفضول والمنهجيين . غير أننا ، من دون السيد انشليف ، ما كُنّا عرفنا عن سوندرسون أكثر مما سيقول لنا عنه الناس العاديون جداً . منها على سبيل المثال أنه كان يتعرف على الأمكنة التي دخلها مرة من قبل ، عن طريق الضجة التي تحدث من الجدران والبلاط ، ومئات الأشياء الأخرى المماثلة التي يشترك فيها مع كافة العميان تقريباً . إذن ماذا! هل يلتقي المرء في إنكلترا بعميان كثيرين من طينة سوندرسون . وهل نقع فيها كل يوم على أناس لم يبصروا البتة ، ويلقون دروساً في البصريات؟

هنالك سعي لإعادة البصر لِكُمْهٍ . لكن لو نظرنا عن كثب ، لرأينا ، في اعتقادي ، منفعة مماثلة للفلسفة تتمثّل في استجواب أعمى ذي حس سليم . وقد نعلم منه كيف تعتمل الأشياء في نفسه . فنقارنها بالطريقة التي تعتمل بها داخل أنفسنا ، وربما خرجنا من تلك المقارنة بحلّ للمصاعب التي تجعل نظرية الرؤية والحواس مرتبكة وغير مؤكدة : غير أني أعترف بأني لا أستوعب ما نؤمّله من إنسان انتهينا لتوّنا من إخضاعه لعملية موجعة في عضو شديد الحساسية ، يمكن لأقل حادث أن يلحق به اضطراباً ، والذي قد يخدع الذين هو سليم في أجسادهم والذين يتمتعون بمنافعه من زمن طويل . وفيما

يتعلق بي أنا، قد استمع بشأن نظرية الحواس، وبرضى أكبر، إلى ميتافيزيائي، تعتبر لديه مبادئ الميتافيزياء وعناصر الرياضيات وتكوّن الأجزاء أموراً مألوفة، من إصغائي لرجل بلا تعليم ولا معارف، وقد أعيد إليه بصره بعملية إزالة الساد. وسوف تكون ثقتي في أجوبة رجل يبصر للمرة الأولى أقل منها في مكتشفات فيلسوف يمعن التفكير في موضوعه وسط الظلمة. أو كمن فقأ عينيه، وأنا أكلمك هنا بلغة الشعراء، ليعرف بيسر أكبر كيف تتم الرؤية.

إذا ما كان لنا أن نسبغ شيئاً من اليقين على بعض التجارب، فينبغي أن يكون الموضوع، على الأقلّ، معداً بكثير من التأنّي. وأن يُرتقى به، وربما أن يُجعل فيلسوفاً: لكن الفيلسوف ليس نتاج عمل برهة، حتى حين يكون المرء كذلك، فما الحال وهو ليس عليها؟إن الأمر الأسوأ حين يعتقد المرء أنه ذاك. سيكون من الملائم جداً عدم البدء بالملاحظات إلا بعد العملية بزمن طويل. وينبغي، في سبيل تلك الغاية، معالجة المريض في الظلمة، والتأكد تماماً من أن جرحه قد شفي وأن عينيه سليمتان. فأنا لا أرغب في أن يتعرض بادئ ذي بدء لضوء النهار. فالنور الشديد الساطع يمنعنا من الرؤية. فكم سيكون تأثيره على عضو ينبغي أن يكون في منتهى الحساسية، ولا سيما أنه لم يتعرض بعد لأي إحساس يفلّ شيئاً من حدّته!

وليس ذلك كل شيء: فهناك أيضاً نقطة شديدة الحساسية، تتمثل في الانتفاع بموضوع أُعِدّ على ذلك النحو. وفي

استجوابه بكثير من الرهافة حتى لا يقول على وجه الدقة إلا ما يحتمل في نفسه. على أن يجري ذلك الاستجواب وسط مجمع علمي. أو بالأحرى، حتى لا يكون هنالك من شهود لا طائل وراء حضورهم، وعلى أن لا يدعى إلى ذلك المجلس إلا الجديرون بذلك عبر معارفهم الفلسفية والتشريحية، الخ... فالناس الأكثر حذقاً وأفضل المفكرين لن يكونوا الأكثر ملاءمة لذلك. وما كانت مهمة تهيئة أكمه واستجوابه جديرةً بغير المواهب المجتمعة لكل من نيوتن وديكارت ولوك ولايبنتز.

سوف أنجز هذه الرسالة التي طالت كثيراً بتساؤل عُرِض منذ زمن طويل. فقد جعلتني بعض التأملات، حول حالة سوندرسون الفريدة، أرى أنه لم يُحسم البتة حسماً نهائياً. نفرض أن أعمى بالولادة أضحى رجلاً كامل النضج، وأنه تعلم أن يميّز باللمس بين مكعب وكرة من المعدن نفسه ومن الحجم نفسه تقريباً، إلى حد أنه حين يلمس القطعة الأولى والأخرى، يستطيع أن يقول أيّهما المكعب وأيهما الكرة. ونفرض أنه فيما المكعب والكرة موضوعان على المنضدة، استعاد ذلك الأعمى البصر. ونتساءل ما إذا كان يستطيع وهو يراهما أن يميز بينهما فيقول أيّهما المكعب وأيّهما الكرة.

كان السيد مولينو أول من اقترح تلك المسألة، فسعى إلى حلها. وقال إن الأعمى لن يميز الكرة عن المكعب مطلقاً. وأضاف: «ذلك أنه مهما تعلّم بالتجربة كيف يؤثر كل من المكعب والكرة في لمسه، فإنه مع ذلك لا يعرف بعد، أنّ ما يؤثّر في لمسه بهذه

الطريقـة أو تلك، ينـبـغي أن يجـتـذب ناظريه بهـذه الطريقـة أو تلك. ولا أن زاوية المكعب الناتئة التي تضـغط على كفه بطريقة غير متساوية، ينبغي أن تبدو لعينيه مثلما تبدو في المكعب.

وحين استُشير لـوك في المسألة أجاب: «إني من رأي السيد مـوليـنو تمامـاً. وأعـتـقـد أن الأعـمى لن يكون قـادراً، لدى النظرة الأولى، علـى التـأكيد بثـقـة أيّـهـما المكعب وأيّـهـما الـكـرة، إذا ما اكتفى بالنظر إليهما، رغم أنه يستطيع لدى لمسهما أن يميز بينهما بكل ثقة لتباين وجوههما، التي جعله اللمس يتعرف عليها.»

غـيـر أن الأب كـونديّاك، الذي قـرأتِ له **«دراسـة في أصل المعارف البـشرية»** بكثـيـر من المتعة والاستفادة، والذي سـأرفق برسالتي هذه لكِ، مؤلّفه الممتاز **«بحث في المنظومات»**، لديه حول المسألة وجهة نظر خـاصـة. من نافلة القـول أن أنقل إليك العلل التي يرتكز إليها. فكأني أحسدك على متـعة القراءة لذلك المؤلَّف الذي عُرِضت فيه بطريقة ممتعة جداً وفلسفية جداً، حتى لأخشى من جانبي أن أحرفها كثيراً عن وجهتها. وسأكتفي بالملاحظة أنها ترمي كلها إلى البـرهان على أن الأكـمـه لا يرى شـيـئـاً أو أنه يرى الكرة والمكعب مـختلفين. وأن المعطيـات بأن ذينك الجسمين من معـدن واحد ومن حجم واحد تقـريباً، والتي اعتبُر من المناسب إدخالها ضمن شروط المسألة، لا طائل وراءها، فـذلك مـالا يمكن الجدل فيـه. لأنه، كـان بوسعه القول، مادام ليس من صلة أساسية مطلقاً بين الإحساس بالنظر والإحساس باللمس، كـما يزعم السيدان لوك ومولينو، إنّ عليهما

الموافقة على أنّ من الممكن رؤية قطر طوله قدمان لجسم يختفي تحت راحة اليد. ومع ذلك فالسيد دوكوندياك يضيف قائلاً إذ كان الأكمه يرى الأجسام، ويميز أشكالها، ويتردّد بشأن الحكم الذي عليه إصداره، فربما ليس ذلك إلا بدافع علل ميتافيزيائية حسنة جداً سأتولى شرحها لك بعد قليل.

ها نحن إذن حيال رأيين مختلفين حول المسألة نفسها، ومن فلاسفة من المصاف الأول. ويبدو أنها، وقد عولجت من قبل أشخاص مثل السيدين مولينو ولوك والأب دوكوندياك، لم تبْقَ من قول فيها لمتقوّل. لكنّ الوجوه التي يمكن النظر إلى الشيء من خلالها على درجة من الكثرة، لا يثير الدهشة بعدها ألا يكونوا استنفدوها كلها

فالذين قالوا إنّ الأكمه سيميّز المكعب من الكرة بدأوا بافتراض واقع قد يكون جديراً بأن نتفحّصه. وأن نعرف إن كان أكمهٌ ما، بعد أن أزيل له السّاد، في حالة تسمح له باستخدام عينيه منذ اللحظات الأولى التي تعقب العملية. فقد قالوا فقط إن الأكمه، وهو يقارن بين الأفكار التي جاءته عن الكرة والمكعب عبر اللمس. وتلك التي يلتقطها بالنظر، سوف يعرف بالضرورة أنها هي نفسها. وسوف ينمّ على كثير من الغرابة ولو قال إنّ المكعب هو الذي أوحى له، لدى رؤيته، بفكرة الكرة وإنّ فكرة المكعب جاءته من الكرة. سيطلق إذن تسمية المكعب والكرة وهو يراهما على ما كان يدعو لمساً بالمكعب والكرة.»

لكن ما كان جواب معارضيهم وما كانت حجتهم؟ لقد فرضوا بالمقابل أنّ الأكمه لن يلحظ على الفور أن العضو لديه سليم. وتخيّلوا أنّ الحال مع العين التي أزيح عنها السّاد هي حال الذراع وقد فارقها الشلل: فلا يلزم هذه، حسبما قالوا، من تدريب كي تحس كما يلزم تلك بالتالي تدريب حتى ترى. ثم أضافوا قائلين: «لنَهَب الأكمه شيئاً من الفلسفة أكثر مما أعطيتموه، وبعد أن مضيتم في محاكمتكم إلى حيث تركتموه، سوف يواصل قائلاً: ولكن من عساه يؤكّد لي أني وأنا أقرّب ذينك الجسمين فأطبق بكفّي عليهما لن يخدعا توقّعي على نحو مباغت، فيرسل إليّ المكعب بإحساس الكرة وترسل الكرة بإحساس المكعب؟ فليس ما من شأنه أن يعلمني بوجود تجانس في العلاقة بين النظر واللمس سوى التجربة: فيمكن لهاتين الحاستين أن تكونا في حالة تعارض، إحداهما حيال الأخرى من غير أن أكون على علم بالأمر. بل ربما اعتقدت أن ما يُعْرَض الآن أمام بصري ليس سوى مظهر بحت، لولا أنهم أحاطوني علماً بأنهما الجسمان عينُهما، اللذان لمستهما. فهذا، على ما يبدو لي في الحقيقة، ينبغي أن يكون الجسم الذي أدعوه بالمكعب. وذاك هو الذي أدعوه بالكرة. لكنهم لا يسألوني عمّا يبدو لي، بل عما هو. ولست في وضع يؤهلني لتلبية ذلك السؤال الأخير على الإطلاق.»

يقول كاتب **دراسة حول أصل المعارف الإنسانية**، من شأن تلك المحاكمة أن توقع الأكمه في ضيق شديد. ولا أرى ماهو قمين

بتقديم الجواب سوى التجربة. وتشير الظواهر كلها إلى أن السيد الأب دوكونديّاك لا يريد الكلام هنا إلا عن التجربة التي يكررها الأكمه بنفسه على الأجسام بملامسة ثانية. ولسوف تشعرين بعد قليل لِمَ أسوق هذه الملاحظة. يبقى أنّ ذلك الميتافيزيائي البارع، كان بوسعه أن يضيف قائلاً: ما كان لأكمهٍ أن يرى أمراً سخيفاً في أن يفرض أن حاستين يمكن أن تتعارضا، لا سيما أنه يتخيل أن مرآة تضعهما هنالك في واقع الحال، كما أشرت إلى ذلك سابقاً.

ويلاحظ السيد دوكونديّاك بعدئذ أن السيد مولينو أثقل المسألة بشتى الشروط التي لا تقوى على استباق المصاعب التي تكوّنها الميتافيزياء حيال الأكمه ولا على رفعها. وهذه الملاحظة صحيحة، لا سيما أن الميتافيزياء التي نفرض وجودها لدى الأكمه، ليست في غير موضعها البتة. نظراً إلى أن التجربة، في تلك المسائل الميتافيزيائية، مفروض أنها تجري على فيلسوف، أي على شخص يكون ملماً، في المسائل التي تطرح عليه، بكل ما تسمح له به محاكمة أعضائه وظرفها بأن يلمح فيها.

ذلك يا سيدتي باختصار، ما قيل في تلك المسألة تأييداً ومعارضة. وسوف ترين، عبر الاستقصاء الذي سأجريه، كم كان الذين أعلنوا أنّ الأكمه سوف يرى الأشكال ويميز الأجسام، بعيدين عن الإدراك بأنهم على حق. وكم كان لدى الذين أنكروه من الأسباب للظن بأنهم لم يكونوا على خطأ مطلقاً.

إن قضية الأكمه، إذا ماأُخذت بصورة أكثر عمومية بقليل مما عرضه السيد مولينو، تشمل اثنتين أخريين سوف نتفحصهما على نحو منفصل. فمن الممكن أن نسأل: أً- إن كان الأكمه سوف يبصر فور إجراء عملية إزالة الساد. ٢ً- في حالة الإبصار، إن كان سيرى رؤية كافية تمكّنه من تمييز الأشكال. وهل سيكون مؤهّلاً لأن يطبّق عليها بكل تأكيد، وهو يشاهدها، نفس الأسماء التي كان يطلقها عليها لمساً. وإن كان سيتوفّر لديه الدليل على أنّ تلك الأسماء تلائمها.

هل يبصر الأكمه بشكل فوري من بعد شفاء العضو: يقول الذين يدّعون أنه لا يبصر على الإطلاق: «ما إنّ يتمتّع الأكمه بملكة استخدام عينيه، حتى يرتسم المشهد المنظور بأكمله في أعماق عينه. وما تلك الصورة، المكونة من عدد لا متناه من المحسوسات المجمعة ضمن مجال صغير جداً، سوى تراكم مشوّش من الأشكال، التي لن يكون مؤهلاً لتمييز بعضها عن البعض الآخر، ونحن على شبه اتفاق على أن التجربة دون سواها قادرة على تعليمه الحكم على بُعد المحسوسات، وأنه ملزم بالاقتراب منها ولمسها، فالابتعاد عنها ثم الاقتراب منها ولمسها أيضاً، لكي يتأكد من أنها ليست جزءاً من ذاته، وأنها غريبة عن كيانه، وأنها مجاورة له تارة وبعيدة عنه تارة أخرى: فلم لا تكون التجربة ضرورة له أيضاً لكي يلمحها؟ فلولا التجربة، لكان على الذي يبصر بالمحسوسات للمرة الأولى أن يتخيّل

وهي تبتعد عنه أو يبتعد عنها، لتصير خارج مجال بصره، أنها كفّت عن الوجود. لأنه ليس سوى التجربة التي نجريها على المحسوسات الدائمة، التي نجدها في نفس المكان الذي تركناها فيه، تثبت لنا وجودها المتواصل في الابتعاد، وقد يكون ذلك هو السبب الذي يجعل الأطفال يتعزّون بسرعة عن الألعاب التي نحرمهم منها. ولا يسعنا القول إنهم ينسونها بسرعة: لأننا إذا ما وضعنا في الحسبان أنّ أطفالاً في الثانية والنصف من العمر، ويعرفون قسماً هاماً من كلمات لغةٍ ما، وأن التلفّظ بها يكلّفهم من الجهد ما يفوق جهد حفظها، صرنا مقتنعين بأن مرحلة الطفولة هي مرحلة الذاكرة. ألن يكون طبيعياً أكثر أن نفترض أن الأطفال يتخيلون حينذاك أن ما يكفّون عن رؤيته قد كفّ عن الوجود، لا سيما أنّ فرحتهم تبدو ممزوجة بالعجب، حين تعود الأشياء التي توارت عن أنظارهم إلى الظهور مجدداً؟ فالمرضعات يساعدنهم على اكتساب مفهوم الكائنات الغائبة، بتدريبهم على لعبة صغيرة تقوم على إخفاء الوجه بالكفّين ثم الكشف عنه على نحو مباغت. فيكتسبون على ذلك النحو الخبرة، ولمئة مرة في ربع ساعة، بأن ما يكفّ عن الظهور لا يكفّ عن الوجود. فينشأ عن ذلك أننا ندين للتجربة بالمفهوم المستمر للمحسوسات. ونكتسب باللمس مفهوم المسافة، وأنه ربما على العين أن تتعلّم النظر، مثلما يتعلّم اللسان الكلام. وإذا مابدت نجدة إحدى الحواس ضرورية لحاسة أخرى، فلن يثير ذلك دهشتنا.

وأن اللمس الذي يؤكد لنا وجود المحسوسات خارجاً عنا، حين تكون ماثلة أمام أعيننا، قد يكون هو أيضاً الحاسة المنوط بها أن تؤكّد لنا، ولا أقول وجوهها والتعديلات الأخرى، بل حتى وجودها نفسه.

تضاف إلى تلك الآراء تجارب تشيلدن الشهيرة. فالشاب الذي أزال له ذلك الجراح البارع السّاد، لم يميّز لوقت طويل بين الحجوم ولا بين الأبعاد ولا بين الأوضاع وحتى الأشكال. فكان جسم بحجم بوصة موضوعٌ أمام عينه، ويحجب عنه منزلاً، يبدو له كبيراً بحجم ذلك المنزل. كانت كافة المحسوسات أمام عينيه. فتبدو له ملتصقة بذلك العضو، مثلما تبدو الملموسات على الجلد. وما كان يقوى على التمييز بين ما حكم بأنه دائري وهو يستعين بيديه، وبين ماله زوايا. ولا أن يميز بالنظر إن كان ما شعر بوجوده في الأعلى أو الأسفل، هو في واقع الأمر في الأعلى أو الأسفل. وتوصّل، ولم يكن ذلك من غير عناء، إلى الملاحظة أنّ يده أكبر من غرفته، لكنه لم يتوصل مطلقاً إلى أن يدرك كيف للعين أن تعطيه تلك الفكرة. لقد لزمه عدد كبير من التجارب المتكررة ليتأكّد من أنّ التصوير يمثّل أجساماً صلبة. وحين اقتنع تماماً، لكثرة ما شاهد من اللوحات، من أنّ ما يراه ليس سطوحاً فقط، مدّ إليها يده، فكان شديد الدهشة لأنه لم يصادف سوى سطح سويّ ليس فيه أي نتوء: فسأل حينئذ عن المُخادع إن كان في حاسة اللمس أم في حاسة البصر. يبقى أنّ

التصوير كان له الأثر نفسه على المتوحشين، الذين ظنّوا، إذ شاهدوا الصور للمرة الأولى، أنهم حيال أناس أحياء، فكلموهم فذهلوا كثيراً حين لم يتلقوا منهم أي ردّ: ومن المؤكد أن ذلك الخطأ لم يصدر عنهم لقلّة تعوّدهم على النظر.

لكن كيف نردّ على المصاعب الأخرى؟ إنّ عين الإنسان المدرَّبة تُري الأغراض في الواقع على نحو أفضل من العضو البليد والجديد تماماً لطفل أو لأعمى بالولادة أجريت له للتوّ عملية إزالة السّاد. ولاحظي يا سيدتي كافة الإثباتات التي يقدّمها الأب كونديّاك في نهاية كتابه **دراسة حول أصل المعارف الإنسانية**، حيث يتصدّى لتنفيذ التجارب التي أجراها السيد تشيلدن ثم رواها السيد فولتير، فآثار الضوء على عين تتأثر به للمرة الأولى، والشروط الواجبة في أخلاط هذا العضو وفي القرنية والجسم الزجاجي، الخ... معروضة فيها بكثير من الوضوح والقوة فلا تسمح بالشك أبداً في أنّ الإبصار يتم بصورة ناقصة جداً لدى طفل يفتح عينيه للمرة الأولى، أولدى أعمى أجريت له العملية تواً.

ينبغي إذن أن نعترف بأن علينا أن نرى في المحسوسات، مالا نهاية له من الأشياء التي لا يراها كل من الطفل والأكمه على الإطلاق، مع أنها ترتسم أيضاً في أعماق عيونهما. وأنه لا يكفي للمحسوسات أن تؤثّر فينا لنكون متنبّهين إلى تأثيراتها. وأنّ المرء

بالتالي لا يرى شيئاً حين يستخدم عينيه للمرة الأولى. وأنه لا يتأثر في اللحظات الأولى من الإبصار إلا بأحاسيس شتّى مشوّشة لا تتوضّح إلا مع الوقت وعبر التفكُّر المعتاد في ما يجري داخلنا. وإنّ الخبرة وحدها هي التي تعلّمنا أن نقارن بين الأحاسيس وبين ما يسبّبها. أما وأنّ الأحاسيس لا تحمل من شيء يشابه المحسوسات بشكل أساسي، فإنّ على الخبرة أن تُعْلمنا ما شأن التماثلات التي تبدو مجرد تعليم: لا يسعنا، باختصار، أن نشك في أن اللمس يساعد كثيراً على إعطاء العين معرفة دقيقة بتلاؤم المحسوس مع التمثيل الذي تتلقاه منه. وإني لأعتقد أنه لولا أن كل شيء يُنَفَّذ في الطبيعة بفعل قوانين عامة بشكل لا متناهٍ، ولولا أنّ وخزة بعض الأجسام الصلبة، على سبيل المثال، مؤلمة، ووخزة أجسام أخرى مصحوبة بمتعة، لقضينا نحبنا، من غير أن نجني جزءاً من مئة مليون من الخبرات الضرورية للحفاظ على جسدنا وعلى رفاهنا.

غير أني لا أظن على الإطلاق أن تقوى العين على التعلّم، أو إذا صح أن نقول ذلك، على التدرّب تلقائياً. فليس من الضروري أن نبصر، لكي نتأكد عن طريق اللمس من وجود الأغراض ومن شكلها. فلمَ يتوجّب علينا اللمس لنتأكّد من وجود الأشياء نفسها عن طريق البصر؟ فأنا أعرف منافع اللمس كلها. ولم أعمل على تمويهها، حين دار الحديث عن سوندرسون أو عن أعمى بويزو. لكني لم أقرّ له بذلك. ونحن ندرك دونما عناء أن استخدام حاسة من

الحواس يمكن أن يكون متكاملاً ومتسارعاً عبر مشاهدات الحاسة الأخرى. لكن من غير أن يكون بين وظائفهما من تبعية أساسية على الإطلاق. ومن المؤكد أن في الأجسام من المزايا التي ماكان لنا أن نعرفها البتة من دون اللمس: فاللمس هو الذي يُعْلمنا بوجود بعض التعديلات التي لا تحس بها الأعين، والتي لا تلمحها إلا حين تحيطها تلك الحاسة بها علماً. لكن تلك الخدمات متبادلة. فالذين يتمتعون بنظر أكثر حدة من اللمس، تكون الحاسة الأولى لديهم هي التي تحيط الأخرى علماً بوجود المحسوسات وبالتعديلات التي فاتها إدراكها بسبب ضآلتها، فلو وضعوا لك، على غير علم منك، ورقة أو مادة أخرى متجانسة، رقيقة ومرنة، بين الإبهام والسبابة، لما كان إلا لعينك أن تعلمك بأن لمس هذين الإصبعين لن يحصل على الفور. وألاحظ بشكل عابر، أنه سيكون أصعب إلى مالا نهاية خداع أعمى بتلك المسألة مقارنة بخداع شخص تعود أن يكون مبصراً.

مامن شك في أن عيناً حيّة ونشيطة ستلقى مشقة في التأكّد من أن المحسوسات الخارجية لا تشكل جزءاً منها. وأنها تكون أحياناً مجاورة لها وأحياناً أخرى بعيدة عنها. وأنها مصوّرة، وأن بعضها أكبر من البعض الآخر وأنّها ذات عمق، الخ... لكنني لست في شك مطلقاً من أنها ستراها، على طول الأمد ومن أنها ستراها بوضوح كبير لتميز على الأقل حدودها العامة، فإنكار ذلك يعني أن تغرب عن البال غاية الأعضاء. وأن نتناسى الظواهر الرئيسة للرؤية. وأن

تتخفى بعدم وجود مصورّ على درجة من البراعة ليقارب جمال المنمنمات التي ترتسم في أعماق عيوننا ودقتها. وأنه مامن شيء يفوق في دقته التشابه مابين التمثيل والمحسوس الممثَّل. وأن سطح تلك اللوحة ليس صغيراً جداً. وليس هنالك من تشوشّ بين الأشكال. وأنها تحتل ما يقارب نصف بوصة مربّعة. وأنه ليس على كل حال ما يفوق صعوبة أن نفسّر كيف يفعل اللّمس كي يساعد العين على الإبصار، إن كان استخدام هذا العضو الأخير مستحيلاً استحالة مطلقة من غير مساعدة ذلك العضو.

غير أني لن أقف عند حدود تخمينات بسيطة وسوف أتساءل إن كان اللّمس هو الذي يعلّم العين أن تميّز بين الألوان. فلا أظن أن يسبغ أحد على اللمس مثل ذلك الامتياز الخارق: يبقى، من بعد ذلك الافتراض، أننا إذا قدمنا إلى أعمى، على أثر إعادة النظر إليه، مكعباً أسود وكرة حمراء فوق أرضية كبيرة بيضاء، فلن يتلكأ كثيراً في تمييز حدود ذينك الشكلين.

قديقال لي، بل إنه سيستغرق الوقت اللازم لأخلاط العين كي تتوافق بالشكل الملائم: للقرنية كي تتخذ التحدّب اللازم للإبصار. وللحدقة لتكون قابلة للتمدّد والتضيّق الخاصين بها. ولخيوط الشبكية كي لا تكون مفرطة في حساسيتها حيال تأثير النور ولا ضئيلة فيها. وللجسم البلوري ليتمرن على الحركات المنسوبة إليه، نحو

الأمام ونحو الوراء. وللعضلات حتى تؤدّي وظائفها. وللأعصاب البصرية كي تألف نقل الإحساس. ولكرة العين بمجملها كي تتأقلم مع كافة الترتيبات الضرورية، للتكاتف على تنفيذ تلك المنمنمة التي نحقق منها نفعاً كبيراً حين يكون المراد أن نبرهن على أن العين تتمرّن من تلقاء ذاتها.

مهما يكن الجدول الذي عرضته الآن حيال عين أكمه بسيطاً، فإني أقر بأن الرجل لن يميز الأجزاء تمييزاً جيداً إلا بعد أن يقوم العضو بتجميع الشروط السابقة كلها.

لكن قد يكون ذلك فعل هنيهة واحدة. ولن يكون صعباً، إذا ماطبّقنا المحاكمة التي عارضوني بها على آلة ما فيها شيء من التعقيد، ولتكن ساعة على سبيل المثال، فلن يكون صعباً البرهان، عبر تفصيل كافة الحركات التي تجري داخل دفّ الساعة، من الكرية فالعجلات فالشفرات فالرقّاص، الخ... على أن العقرب بحاجة لخمسة عشر يوماً ليتحرك مسافة ثانية [1]. فإذا ماردّ أحدهم علي بأن تلك الحركات متزامنة، أجبته إنّ الأمر قد يكون هو نفسه بشأن الحركات التي تجري في العين، حين تفتح للمرة الأولى، وبشأن أكثرية الأحكام التي تتم حسب المقتضى. ومهما يكن من أمر تلك

(١) قدّم ديدرو هذه المحاكمة المنطقية قبل قرنين وأكثر من اختراع الحاسبات والأدمغة الالكترونية. م.

الشروط التي يُطْلَب توفُّرها في العين لتكون مهيأة للإبصار، فعلينا أن نقر بأن اللمس، ليس هو الذي يمنحها إياها قطعاً، وأن ذلك العضو يكتسبها من تلقاء نفسه. وأنه سيتوصل، بناء على ذلك، إلى تمييز الأشكال التي سترتسم فيها، من غير الاستنجاد بحاسة أخرى.

لكن قد يقال مرة أخرى متى يبلغ ذلك المستوى؟ربما أسرع بكثير مما يُظن. أتذكرين، يا سيدتي، تجربة المرآة المقعّرة، يوم توجّهنا معاً لزيارة المكتب في الحديقة الملكية، وما استولى عليك من فزع وأنت ترين رأس السيف مقبلاً عليك بنفس سرعةرأس السيف الذي كان في يدك وأنت تقصدين به صفحة المرآة؟ علماً بأنك تعوّدت أن تنسبي إلى أبعد من المرايا كافة المحسوسات التي ترتسم فيها. ليست التجربة إذن بضرورية ولا حتى بناجعة على قدر ما نظن، لكي نبصر بالأغراض أو بصورها حيثما هي. حتى بلغ الأمر ببَّغائك أن يقدّم لي دليلاً على ذلك. فحين رأى نفسه في مرآة لأول مرّة قرّب منها منقاره، ولمّا لم يلتق بصورته التي ظنها صنواً له، قام بدورة حول المرآة. وليس في نيّتي البتة أن أسبغ على شهادة الببغاء قوة أكبر مما تتضمّن. غير أنها تجربة مع الحيوان، وليس للحكم المسبق فيها من نصيب.

إلا أنّهم أكدوا لي أنّ أكمهاً لم يميّز شيئاً طيلة شهرين، فلم يدهشني ذلك البتة. وسوف أخلص منه إلى ضرورة التجربة للعضو

فقط، لا إلى ضرورة اللّمس مطلقاً لإكسابه الخبرة. ولن أفهم مما تقدّم إلا على نحو أفضل إقامة الأكمه مدة من الزمن في الظلمة، حين تنعقد النية على مراقبته. وأن نعطي الحرية لعينيه من أجل التدرّب، وذلك ما تؤديانه وسط الظلمة بيسر أكبر بكثير منه في وضح النهار. وأن لايُمنح أثناء التجارب إلا نوعاً من ضوء الأصيل، أو على الأقل، ترتيب الأمور في مكان إجرائها على نحو يسمح بزيادة الإضاءة أو التخفيف منها وفق الطلب. وأنا على استعداد دائم للموافقة على أنّ تلك الأنواع من التجارب كانت على الدوام شديدة الصعوبة وذات نتائج غير أكيدة. وأنّ الموضوع الأقصر في الواقع، رغم أنه الأطول في الظاهر، إنما يتمثّل في تزويد الرجل بالمعارف الفلسفية التي تجعله قادراً على المقارنة بين الظرفين اللذين عاشهما. وأن يعلمنا بالفارق ما بين حال الأعمى وحال البصير. ونتساءل مجدّداً ما عسانا ننتظر شيئاً دقيقاً من امرىء لم يتعوّد أن يفكّر أو يعكف على ما بداخله. والذي يجهل منافع البصر، مثل أعمى تشيسلدن، إلى درجة عدم الإحساس بعاهته، وأنه لايتخيل مطلقاً أن فقدان تلك الحاسة يلحق ضيراً بمباهجه؟ لكن سوندرسون، الذي رفضوا أن يمنحوه لقب فيلسوف، لم تكن لديه بكل تأكيد تلك اللامبالاة. بل أشك كثيراً في أنه كان على رأي كاتب العمل الرائع «**بحث في المنظومات**». وأميل إلى الظن أن آخر واحد من أولئك الفلاسفة آمن إيماناً بليداً بمنهج ضئيل الأهمية حين ادّعى «إن حياة

الإنسان لو كانت فقط إحساساً لاينقطع باللذة أو الألم، وكان الإنسان سعيداً في حال من دون أية فكرة عن الشقاء، وكان شقياً في حالة أخرى من دون أية فكرة عن الهناء، لتمتع أو شقي. وإن طبيعته لو كانت على ذلك النحو لما نظر إلى ما حوله مطلقاً ليكتشف من كائن ما يسهر على راحته، أو يعمل على إلحاق الضيم به. وأنّ الانتقال المتناوب من حالة إلى أخرى هو الذي دفع به إلى التفكير، الخ...».

فهل تعتقدين يا سيدتي أنّ المؤلف وهو ينزل من مدركات حسيّة واضحة إلى مدركات حسيّة واضحة (لأن طريقته الفلسفية هي السليمة)، يمكن أن يتوصّل يوماً إلى ذلك الاستنتاج؟ فالتعامل مع مسألة الهناء والشقاء لايماثل التعامل مع مسألة الظلمة والنور: فأحدهما لايقوم على حرمان من الآخر بلا شرط. ولو كانت متعتنا خالصة من كل زيف لأكّدنا على أن الهناء لايقل ضرورة بالنسبة لنا عن الوجود وعن الفكر. غير أني لاأقوى على قول شيء مماثل عن الشقاء. ولكان طبيعياً جداً أن ننظر إليه حالةً ملزمة، والإحساس بالبراءة، والاعتقاد رغم ذلك بالذنب، وباتهام الطبيعة أو إيجاد العذر لها، على نحو ما يجري تماماً.

فهل يعتقد الأب دوكوندياك بأن الطفل لايشكو حين يتوجّع، إلا لأنه لم يتوجّع من غير انقطاع منذ مجيئه إلى العالم؟ لو أجابني

«إن الوجود والعذاب هما الشيء نفسه بالنسبة لم توجّع على نحو دائم. وإنه لايتخيّل أن يقوى أحد على رفع العذاب عنه من غير أن يهدم وجوده من أساسه». فقد أردّ عليه قائلاً ما كان للرجل الشقي بلا انقطاع أن يقول: ماذا جنيت لكي أتعذّب؟ لكن من عساه يمنعه من أن يقول: ماذا جنيت كي أُوجَد؟ مع هذا فلست أرى البتة لم لايستخدم الفعلين مترادفين «أُوْجَدُ» و«أتَعذّب»، واحداً للنثر والآخر للشعر، مثلما نستخدم الفعلين «أعيش» و«أحيا». يبقى أنك ستلاحظين أفضل مني، ياسيدتي، أن ذلك المقطع من بحث السيد دوكونديّاك مكتوب على أكمل وجه. ولكَم أخشى أن تقولي، وأنت تقارنين نقدي بآرائه، إنك تفضّلين خطأ يصدر عن مونتيني على حقيقة جاء بها شَرّون charron

سوف تقولين إنه خروج عن الموضوع بشكل دائم. بلى، ياسيدتي، فذلك شرط بحثنا. وهاك الآن رأيي حول الموضوعين السابقين. أعتقد أن الأكمه الذي تنفتح عيناه على النور للمرة الأولى لايبصر من شيء على الإطلاق. وأنّ عينه بحاجة لبعض الوقت للتدرّب: لكنها سوف تتدرّب من تلقاء ذاتها، ومن دون الاستعانة باللمس. وأنّه سوف يتوصّل لا إلى التمييز بين الألوان فحسب، بل إلى تبينّ الحدود العامة للمحسوسات على أقل تقدير. ولننظر الآن بشأن الافتراض أنه يكتسب تلك الملكة في زمن قصير جداً، أم أنه يحصل عليها عن طريق تحريك عينيه وسط الظلمة، حيث

سيحرصون على الإبقاء عليه وحثّه على القيام بذلك التمرين بعد العملية وقبل التجارب. أقول فَلْنَرَ إنْ كان سيتعرّف بالنظر على الأجسام التي لمسها، وإنْ كان قادراً على تسميتها بالأسماء التي تلائمها. وتلك هي المسألة الأخيرة التي يبقى عليّ حلُّها.

أما وأنك تحبين طريقة العمل، وأني أريد أن أفي ما علي على نحو يروقك، فسوف أميّز بين عدة أنماط من الأشخاص، الذين يمكن أن نحاول إجراء التجارب عليهم. فإذا كانوا من الأشخاص البدائيين الذين لم يتلقّوا أية تربية، وغير مهيّئين، فإني أظن أن المحسوسات، بعد أن تكون عملية إزالة السّاد قضت على العيب في العضو قضاء تاماً، وأضحت العين سليمة، سوف ترتسم فيها بتميز كبير. غير أن أولئك الأشخاص الذين لم يتعوّدوا على أي نوع من المحاكمة، والذين لايعرفون ماهية الإحساس والفكرة، والذين ليسوا بقادرين على مقارنة التمثيلات التي جاءتهم عن طريق اللمس بتلك التي تأتي عن طريق النظر، سوف يقولون: تلك مستديرة وذلك مربع، دون أن يكون لحكمهم أي كنه؛ أو أنهم سيوافقون بسذاجة على أنهم لايلمحون في الأغراض المعروضة لبصرهم من شيء يماثل تلك التي لمسوها.

سيقول أشخاص آخرون وهم يقارنون الأشكال التي سيرونها، بالأجسام التي تركت انطباعاً على أيديهم، ويطبقّون بالفكر ملامستهم على تلك الأجسام الموضوعة على بعد منهم،

فيقولون عن واحد إنه مربع وعن الآخر إنه دائرة، من غير أن يعرفوا السبب كثيراً. فمقارنة الأفكار التي حملوها باللمس بتلك التي يتلقونها بالنظر، لاتعتمل في داخلهم بوضوح كافٍ لإقناعهم بحقيقة حكمهم.

سأنتقل ياسيدتي، دون خروج عن الموضوع، إلى ميتافيزيائي، نسعى لأن نطبق التجربة عليه. ولا أشك مطلقاً في أنه سيبدأ فور تمييزه الأغرض تمييزاً واضحاً، بالتفكّر والحكم فيها كأنّه كان يراها طول حياته. وأنه بعد المقارنة بين الأفكار التي تأتيه عن طريق النظر وتلك التي جاءته عن طريق اللمس، سوف يقول بالثقة نفسها مثلك ومثلي: «سأكون شديد الميل إلى الاعتقاد بأن هذا الجسم هو الذي دعوته دوماً بالدائرة، وأن ذلك الجسم هو ما أطلقت عليه اسم المربع. لكني سأتحفّظ دون القول إنّ الأمر كذلك. فمن عساه يبيّن لي أنها لن تتلاشى تحت يدي إذا ما اقتربت منها؟ ومن أدراني إن كانت المحسوسات تحت نظري مكرسة أيضاً لأن تكون محسوسات تحت لمسي؟ فأنا أجهل إن كان ما هو منظور لدي ملموساً. لكني حين أخرج نهائياً من هذا الرّيب، فأصدّق الأشخاص الذين يحيطون بي من كلامهم، في أنّ ما أراه هو حقاً ما قد لمست، فلن أحقق أي تقدم في هذا المجال. فيمكن لتلك المحسوسات أن تتحوّل تماماً بين يدي، فتشعرني عن طريق اللمس بأحساسيس مخالفة تماماً لما أحسّ به عن

طريق النظر. وسوف يضيف قائلاً: هذا الجسم، ياسادتي، يبدو لي مربعاً وذاك مستديراً. لكن ليس لدي من دراية في أن يكونا كذلك من جهة اللمس كما من جهة النظر».

أما اذا استبدلنا مهندساً بالميتافيزيائي، أي سوندرسون بدلاً من لوك، فسوف يقول مثله، إنه إذا ما صدّق عينيه، كان يطلق على هذا اسم المربع، من بين الشكلين اللذين يراهما، وعلى ذاك اسم الدائرة. وسوف يضيف: «لأني ألاحظ أن ليس سوى الأول من شكل أستطيع أن أنظّم فيه الخيوط وأضع الدبابيس الكبيرة التي تحدّد نقاط الزوايا في المربع. وأن ليس سوى الثاني من شكل أستطيع أن أرسم عليه أو أحلّق الخيوط التي كانت ضرورية لي لأبرهن على خصائص الدائرة. تلك إذن هي دائرة! وذاك هو مربع! وقد يواصل قائلاً مع لوك: لكن حين أطبق بكفي على ذينك الشكلين، ربما يتحولان كل منهما للآخر، على نحو يجعل الشكل الواحد يمكّنني من البرهان على خصائص الدائرة للعميان وعلى خصائص المربع للمبصرين. وربما رأيت مربعاً وأحسست في الوقت نفسه بدائرة. وسوف يردف قائلاً: كلا، لقد أخطأت. فالذين كنت أبرهن لهم على خصائص الدائرة والمربع، لم تكن أيديهم فوق لوحتي البيانية، فلا يلمسون الخيوط التي شددتها والتي تحدّد لي الأشكال. وكانوا مع ذلك يفهمونني. ما كانوا إذن يشاهدون مربعاً، حين أحس أنا بدائرة. وإلا ما كان لنا أن

تتفاهم على الإطلاق. فأنا أرسم لهم شكلاً وأبرهن على خصائص شكل آخر. فأعطيهم خطاًمستقيماًعلى أنه قوس من دائرة، وقوساً على أنه خط مستقيم. أما وأنهم كانوا يسمعوني جميعاً، فالناس كلهم إذن، يرى بعضهم مثلما يرى البعض الآخر: أنا أرى إذن مربعاً ما يرونه مربعاًومستديراً ما يرونه مستديراً. فهاكم إذن ما دعوته على الدوام مربعاً وهاكم ما دعوته دوماً دائرة».

لقد أبدلت الدائرة بالكرة والمربع بالمكعب، لأن هنالك ما يظهر أننا لانحكم على الأبعاد إلا بالتجربة. وبناء على ذلك فالذي يستخدم عينيه للمرة الأولى لايرى سوى سطوحاً، ولايدري ماهو النتوء. ويقوم النتوء في جسم ما من ناحية النظر على أن بعضاً من نقاطه تبدو أكثر قرباً إلينا من بعضها الآخر.

لكن حين يبدي الأكمه رأياً، من أول مرة يبصر فيها النور، في بروز الأجسام وصلابتها، ويكون قادراً على التمييز، ليس بين الدائرة والمربع فقط، بل بين الكرة والمكعب أيضاً، فلا أعتقد أن الأمر سيكون على ذلك النحو بالنسبة لكل محسوس آخر أكثر تركيباً. هنالك ما يرجّح أنّ العمياء بالولادة التي قدّمها السيد ريومير قد ميّزت الألوان، بعضها عن البعض الآخر، لكن هنالك ما يسمح بالمراهنة بنسبة ثلاثين إلى واحد، على أنها قالت ما قالت عن الكرة والمكعب بمحض المصادفة. وأنا أعتبر في حكم المؤكّد، أنها ما كانت، من دون

وحي، بقادرة على التعرف على قفازاتها ومسحها وحذائها. فتلك المحسوسات محمّلة بعدد كبير جداً من التعديلات، حتى أن العلاقة ضئيلة جداً بين شكلها الكلي وشكل الأعضاء التي خُصِّصت هي لتزيينها أو تغطيتها، مما يتسبّب بمعضلة مربكة مئات أضعاف المرات لسوندرسون، كي يحدد استخدام قبعته المربعة، مقارنة مع ما يسببه العثور على طريقة استخدامه لألواحه، بالنسبة لكل من دالامبير أو كليرو.

لم يتوانَ سوندرسون عن الافتراض بوجود علاقة هندسية بين الأشياء وطريقة استخدامها. ولاحظ، بناء على ذلك، في تماثلين أو ثلاثة، أن طاقيته قد صنعت لرأسه: فليس هنالك من شكل اعتباطي يرمي إلى تضليله. ولكن ما كان رأيه في زوايا طاقيته المربعة وفي شرُابتها؟ فما نفع تلك الخصلة من الصوف؟ ولم الزوايا أربع بدلاً من ست؟ هكذا كان تساؤله. فهذان التعديلان اللذان يشكّلان لنا وجهاً من وجوه التزيين، كانا سيشكلان له مصدراً لشتى الآراء اللامعقولة، أو بالأحرى مناسبة لنقدية رائعة لما نطلق نحن عليه اسم الذوق السليم.

إذا ما تفكّر المرء في الأشياء تفكّراً ناضجاً، خلُص إلى أن الفارق، بين شخص كان دوماً مبصراً لكنّه يستخدم شيئاً ما استخداماً مجهولاً بالنسبة له، وبين الذي يعرف استخدام الشيء لكنه لم يكن مبصراً البتة، ليس في صالح هذا الأخير: ومع ذلك، فهل تعتقدين،

ياسيدتي، إذا ما عرض عليك أحدهم اليوم، وللمرة الأولى، قطعة زينة، أنك ستتوصلّين إلى تبيّن حقيقتها بالضبط، وأنها زينة للرأس؟ ولكن إذا كان من الصعوبة بمكان على أكمه يبصر للمرة الأولى، أن يحكم حكماً صائباً على الأغراض، وفقاً للعدد الكبير من الأشكال التي تتخذها، فمن سيحول بينه وبين أن يعتبر مراقباً بكامل ثيابه، جالساً ساكناً على كنبة قبالته، قطعة من قطع الأثاث أو آلة ما؟ أو أن يعتبر شجرة يهز الهواء أوراقها وأغصانها كائناً حياً يتحرك ويفكرٌ؟ ألا كم توحي إلينا حواسنا بأشياء، يا سيدتي. وكم سنلاقي من عناء، دون عيوننا، في الافتراض بأن كتلة من الرخام لا تفكر ولا تشعر!

يبقى إذن أمراً ثابتاً بالبرهان، أن سوندرسون كان سيظل واثقاً من أنه لم يخطئ في الحكم الذي جاء به على الدائرة والمربع فقط. وأن هنالك حالات يمكن فيها أن يضيء رأي الآخرين وتجربتهم النظر حول العلاقة باللمس، وتعليمه أن ما هو على هذا النحو بالنسبة للعين هو كذلك أيضاً بالنسبة للمّس.

يبقى أمراً أساسياً على كل حال، حين يعتزم المرء أن يبرهن على فرضية ذات حقيقة أبدية، مثلما يُطلَق على ذلك النوع من الحقائق، أن يثبت دليله. بحرمانه من شهادة الحواس. ذلك أنك تلاحظين بحق، يا سيدتي، إنه إذا ما تنطّح أحدهم ليبرهن لك على أن مسقط خطين متوازيين على لوح ينبغي أن يتم برسم خطيّن متقاطعين، لأن مسلكين ما يبدوان كذلك، إنما ينسى أن الفرضية صحيحة بالنسبة لرجل أعمى كما هي بالنسبة له.

غير أن فرضية الأكمة السابقة إنما توحي باثنتين أخريين، واحدة عن إنسان مبصر منذ مولده، لكنه لم يتمتع بحاسة اللمس قط، والأخرى عن إنسان لديه حاسة النظر وحاسة اللمس في حالة من التعارض الدائم. ويسع المرء أن يسأل الأول إن كان قادراً، بعد إعادة الحاسة المفقودة إليه، وحرمانه من حاسة النظر بوضع عصابة على عينيه، أن يتعرف على الأجسام عن طريق اللمس، من المسلّم به أن الهندسة، إذا ما كان متعلماً، كفيلة بتزويده بوسيلة لا خلل فيها، للتثبّت من أن شهادات الحاستين هي في حالة من التعارض أم لا. ولن يكون عليه سوى أن يأخذ المكعب أو الكرة بيديه، فيبرهن لأحد ما على الخصائص، وأن يتفوّه، إن كانوا يفهمونه، إن المرء يرى مكعباً ما يحس بأنه مكعب، وإنه هو بالتالي المكعب الذي يحمله بيده. أما الذي يجهل ذلك العلم، فأعتقد أنه لن يكون أسهل عليه أن يميز عن طريق اللمس، ما بين المكعب والكرة، أكثر منه بالنسبة لأعمى السيد مولينو، ليميزّهما بالنظر.

أما بشأن الذي لديه أحاسيس النظر واللمس في حالة من التعارض الدائم، فلست أدري كيف يكون رأيه في الأشكال والتنظيم والتناظر والجمال والدمامة، الخ... من المرجح أن يكون حيال تلك الأشياء، مثلنا نحن نسبياً حيال المدى الحقيقي للكائنات وديمومتها الحقيقية. وسوف يتلفظ بشكل عام بأن لكل جسم شكلاً. لكن عليه

أن يميل نحو الاعتقاد بأنه ليس بالشكل الذي يراه ولا بالذي يلمسه. ويمكن لمثل ذلك الإنسان أن يكون مستاء من حاسّتيه. لكن حاستيه لن تكونا مسرورتين من المحسوسات ولا مستائتين منها. وإذا ما مال إلى اتهام إحداهما بالعيب، فأعتقد بأنه سيتوجه باتهامه نحو اللمس. لأن مئة ظرف وآخر سوف تدفع به نحو الظن بأن شكل المحسوسات يتغير بفعل يديه عليها، بدلاً من فعلها هي على عينيه. غير أن ما سيلحظه في الأجسام من فارق في الصلابة واللدونة، نتيجة لتلك الأحكام السبقية، سيتسبّب له بضيق شديد.

أما وأن حواسنا ليست في تعارض حول الأشكال، فهل من شأن ذلك جعل الأشكال معروفة لدينا معرفة أفضل؟ فمن أخبرنا بأننا لسنا بصدد شهود بالزور؟ إلا أننا نصدر أحكامنا. فوا أسفاه، يا سيدتي، لأن المعارف الإنسانية حين وُضِعت في ميزان مونتينيMontaigne ، لم نعد بعيدين عن اعتماد شعاره فما الذي نعرفه؟ أنعرف ما حقيقة المادة؟ على الإطلاق. ما الفكر وما التفكير؟ كلا أيضاً. ما الحركة والمكان والزمان؟ النفي القطعي. والحقائق الهندسية؟ اسألي رياضيين صادقين، يعترفوا لك بأن فرضياتهم متماثلة كلها، وأن كثيراً من الحجوم فوق الدائرة مثلاً، تُختصر بالتكرار على مسامعنا بآلاف الطرق المختلفة: أنها شكل، وكافةالخطوط المتجهة فيه من المركز إلى المحيط متساوية. نحن

إذن لا نعرف شيئاً تقريباً. ومع ذلك فكم عدد الكتابات التي ادّعى مؤلفوها بأنهم يعرفون شيئاً ما ! لست أتبيّن لمَ لا يشعر العالم بالسأم من القراءة دون أن يتعلم شيئاً ، ما لم يكن للسبب عينه، الذي يجعلني أتشرّف منذ ساعتين بمجاذبتك أطراف الحديث من غير أن أشعر بالسأم ومن غير أن أقول لك شيئاً.

وأنا بما أكنّه لك من عميق الاحترام، يا سيدتي،

خادمك المتواضع وخادمك المطيع جداً

* * *

إضافة
إلى الرسالة السابقة

سـوف أخط بلا انتظام على الورق ظواهر لـم تكن مـعـروفـة لدي، لكنهـا تفـيـد دلائـلَ إثبـاتٍ على بعض المقـاطـع التي جـاءت في بحثي **رسالة حول العميان**، أو عوامل دحض لها. كتبتها قبل ثلاثة وثلاثين عاماً أو أربعة وثلاثين. وقرأتها مجدّداً من غير انحياز فلم أجدني شـديد الاستيـاء مما كتبت. ومع أن الجزء الأول بدا لي أكثر إمتاعاً من الثاني. وأني شعرت أنه كان له أن يكون أطول بقليل وأن يكون هذا أقصر بكثير، فسوف أدع هذا وذاك على مثل ما كتبتهما، مخافة أن لا تصير صفحة الشاب أفضل بتعديل العجوز. أما ما هو مطاق في الأفكار، وفي التعبير، فأعتقد أني أبحث عنه اليوم بلا طائل، وأخشى أيضاً أن أكون غير قادر على تصحيح ما فيها من ذميم. لقد عمد مصوّر شهير في أيامنا إلى استخدام السنين الأخيرة من حياته في تشويه الروائع التي أنجزها وهو في عنفوان شبابه. ولست أدري إن كانت العيوب التي لاحظها فيها، عيوباً حقيقية. غير

أن الموهبة التي ستقوم بالتصحيح، إمّا أنه لم يحظ بها البتة، إن كان نقل تحديدات الطبيعة حتى آخر حدود الفن، أو أنه، إن كان حظي بها، فقد فقدها، لأن كل ما هو من الإنسان يزول مع الإنسان. ويأتي حين من الدهر يقدّم فيه الذوق نصائح، يعترف المرء بصحتها، غير أنه لا تعود لديه القوة على اعتمادها.

ذلكم هو الجبن الذي يولد من وعي المرء بضعفه، أو هو الكسل كواحدة من نتائج الضعف والجبن، والذي يجعل نفسي تعاف عملاً قد يلحق ضيراً بتحسين كتابي أكثر مما ينفعه.

ظواهر

١ - أكّد لي فنان متمكّن كل التمكّن من نظرية فنه، فلا يتقدّم عليه من أحد في مجال التطبيق، أنه كان يحكم باللمس على استدارة الكرات الصنوبرية. فكان يديرها بهدوء بين الإبهام والسبابة، ويكشف بالانطباع المتوالي فروقاً ضئيلة كانت تعجز عينه عن تمييزها.

٢ - قيل لي عن أعمى إنه كان يعرف باللمس ألوان الأقمشة.

٣ - بوسعي أن أذكر واحداً كان يدرّج باقات الزهر وفق الألوان برهافة ذوق كان جان جاك روسو يتباهى بها، حتى صرّح لأصدقائه، تصريح جدٍّ أو لعبٍ، بعزمه على فتح مدرسة يلقي فيها دروساً على بائعات الزهور في باريس.

٤ - شهدت مدينة أميان مقصِّب حجارة أعمى يدير مشغلاً كبيراً، بدرجة من الذكاء كأنه يتمتع بعينين سليمتين.

٥ - أفقد الاعتماد على النظر رجلاً مبصراً، ثقته بيده. فكان حين ينوي أن يحلق رأسه يزيح المرآة فيقف أمام جدار عار. فالأعمى الذي لا يرى الخطر يغدو مقداماً. ولا يخامرني الشك في قدرته على

المشي بخطى ثابتة فوق ألواح دفٌ ضيقة ومرنة تشكل جسراً فوق هاوية. وقلّة هم الناس. الذين لاتُسبِّب لهم الأعماق الكبرى غشاوة على أعينهم.

٦ - هل من أحد لم يعرف دافيل الشهير أو لم يسمع عنه؟ لقد حضرت عملياته مرات عديدة. فأزال السّاد يوماً لحداد أصيب بالمرض لوقوفه المتواصل أمام نار كوره. وتعود طيلة خمسة وعشرين عاماً، كُفَّ فيها بصره، على الاعتماد على اللمس، حتى أضحت إساءة معاملته ضرورية لدعوته إلى استخدام العضو الذي أعيد إليه. فكان دافيل يقول له وهو يوسعه ضرباً: هلا نظرت، أيها الفظ! ...

كان يمشي، ويصرِّف شؤونه. فكل ما نقوم به وعيوننا مفتوحة، كان هو يؤدّيه وعيناه مغمضتان.

يمكن أن يخلص المرء من ذلك إلى أن العين ليست مفيدة لحاجاتنا ولا هي أساسية لهنائنا على قدر ما نميل إلى الاعتقاد. فما هو الشيء الموجود في العالم، والذي لم يستتبع الحرمان الطويل منه أي ألم، والذي جعلنا غير مكترثين بفقده ما دام مشهد الطبيعة قد فقد كل فتنة بالنسبة لأعمى دافيل؟ أهي رؤية غالية على قلوبنا؟ لست أصدّق شيئاً من ذلك، مهما يكن ظرف الواقعة التي سأحكيها. يخال المرء أننا إذا ما أمضينا زمناً طويلاً من غير أن نرى، فإننا لا نملّ من النظر. لكن ذلك غير صحيح. فأي فارق بين العمى المؤقت والعمى المزمن!

٧ - اجتذب إحسان دافييل مرضى محرومين أمّوا مخبره من كافة أرجاء المملكة، كما استدعى إليه صيته جماعة فضولية متعلمة وكبيرة العدد. وأعتقد أننا كنّا ضمن عدادها، في النهار نفسه، أنا والسيد مرمونتيل. كان المريض جالساً وقد أزيل له الساد. وضع دافييل كفه على عينين فتحهما على النور لتوه. وكانت تقف بجانبه امرأة مسنّة، تُولي نجاح العملية أقصى اهتمامها. فترتعد أطرافها كلها لكل نأمة تصدر عن المعالج. فأشار إليها أن تتقدّم، ثم جعلها تجثو أمام المريض. وأزاح كفه، ففتح الرجل عينيه، فرأى، فهتف: إيه، إنّها أمّي!... ولم أسمع قط من صرخة مؤثّرة أكثر. بل يبدو لي أني ما أزال أسمعها، فسقطت المرأة مغشياً عليها، وذرفت عيون الحضور الدموع، فانهالت الصدقات من الجيوب.

٨ - تظل الآنسة ميلاني دوساليناك، الشخصية الأكثر إثارة للدهشة بين من جاؤوا ومن سيأتون، من كافة الأشخاص الذين حرموا البصر منذ الولادة تقريباً، وهي قريبة الجنرال لافارغ، القائد العام للجيوش الملكية، والشيخ الذي توفي موخراً عن واحد وتسعين عاماً، وجسده المغطى بالجروح تكللّه الأوسمة. وابنة السيدة دوبلاسي التي ما تزال على قيد الحياة، والتي لا يمر من يوم لا تتحسّر فيه على ابنتها التي كانت قرة عين لها ومثار إعجاب كافة معارفها. تتميز السيدة دوبلاس برفعتها وسموّ مناقبها، حتى ليمكن الاستفسار منها عن صحة حكايتي. فقد دوّنتُ تحت إملائها حياة الآنسة دوساليناك والخصائص التي فاتني التقاطها طيلة مرحلة من التواصل

الودّي الذي بدأ معها ومع أسرتها عام ١٧٦٠ ودام حتى ١٧٦٣، وهو عام وفاتها.

كانت ذات رصيد عقلي كبير ولطافة فاتنة، ورقة قلّ مثيلها في الفكر وفي البراءة. وذات مرة وجهت إحدى خالاتها الدعوة لأمها كي تمد لها يد العون لاستقبال تسعة عشر من الغرباء ومجالستهم، فهم مدعوون عندها على الغداء؛ فقالت الفتاة: **لا أدرك شيئاً من تصرّف خالتي . وما الداعي لمسايرة تسعة عشر من الغرباء؟ أنا لا أريد من ناحيتي أن أساير سوى الذين أحبهم فأبهجهم.**

كان لنغمة الصوت تأثير عليها، فتنة أو نفوراً، يماثل تأثير السحنة على المبصر. وجرت ملاسنة كلامية قاسية، ما كانت لتتوقعها، بين قريب لها، هو جابي المالية العام، وبين أسرتها، فقالت مندهشة: **من كان يظن أن يصدر ذلك عن صوت شديد العذوبة؟** أما حين تسمع غناء فكانت تميز بين الأصوات **السمراء** والأصوات **الشقراء**.

عندما يتوجه إليها امرؤ بالكلام كانت تحكم من اتجاه صوته على طول قامته، فالصوت يأتيها من أعلى إلى أسفل إذا كان الشخص طويل القامة أو من أسفل إلى أعلى إن كان قصيراً.

لم يكن يشغل بالها أن تبصر؛ وسألتها ذات يوم عن السبب فأجابت: «ذلك أنه لن يكون لي سوى عينين اثنتين. في حين أني

أتمتّع بعيون الجميع. وأغدو بهذا الحرمان موضوعاً متواصلاً للاهتمام والعطف. فأنا في كل ساعة موضع تكريم، وفي كل ساعة تمتلئ نفسي امتناناً. فيا للأسف! لأني إذا أبصرت، فلن يهتم أحد بشأني من بعد.».

لقد أدّت أخطاء البصر إلى تخفيض قيمته بالنسبة لها. فكانت تقول:

«أنا أقف عند مدخل ممشى طويل. وفي طرفه شيء ما: فيراه أحدكم متحركاً ويراه الآخر في حالة سكون. يقول هذا إنه حيوان ويقول ذاك إنه إنسان، فيتبين لدى الاقتراب منه أنه أرومة شجرة، يجهل الكل إن كان البرج الذي يشاهدونه بعيداً دائرياً أم مربعاً. أنا أتحدى زوابع الغبار، في حين أن الذين يحيطون بي يغمضون عيونهم، فتنتابهم الكآبة، ويدوم ذلك أحياناً نهاراً بطوله، لأنهم لم يغمضوها في وقت مبكر أكثر. ولا حاجة إلا لذرّة لا تُلمح كي تتسبّب لهم باضطراب عنيف.» وكانت تقول لدى اقتراب الليل **إن نفوذنا يوشك أن ينتهي ونفوذها هي على وشك أن يبدأ**. وإنّا لندرك أنها، وهي تعيش في الظلمة حتى تعودت على التصرف والتفكير طيلة ليل أبدي، لا تشعر بالأرق ليضايقها بينما يتسبّب لنا بإزعاج شديد.

لم تسامحني لأني كتبت إنّ العميان، وقد حرموا من مؤشرات العذاب، لابد أن يكونوا ذوي قلوب قاسية. فكانت تقول لي: «وتظنّ أنك تسمع الشكوى مثلي أنا؟ - هنالك تعساء يعرفون

العذاب من غير أن يتشكّوا. فتردّ قائلة: أعتقد أني سأكتشفهم على الفور، ولن أرقّ لحالهم إلا أكثر».

كانت شغوفة بالقراءة مأخوذة بالموسيقى. فتقول: «أعتقد أني لا أمل أبداً سماع الغناء أو العزف المتقن على آلة ما. وإذا كانت تلك السعادة هي الوحيدة التي سينعم بها الناس في السماء، فلن يضيرني أن أكون هنالك. لقد كنتَ على حق حين أكدت على أن الموسيقى هي الأكثر عنفاً بين الفنون الجميلة، دون أن تستثني منها الشعر ولا الخطابة. وأن راسين نفسه ما كان يعبر بمثل رقّة القيثارة. وأن الإطراب في شعره ثقيل ورتيب إذا ما قورن بنغم الآلة، وأنك تمنيت في الغالب أن تضفي على أسلوبك قوة ألحان باخ ورشاقتها. أما بالنسبة لي، فهي أجمل اللغات التي اتقنها. فكلما كان اللفظ، في اللغات المحكية، أفضل كان التلفظ بالمقاطع أكبر. بينما نرى في اللغة الموسيقية أن الأصوات الأكثر تباعداً، من الجهير إلى الحاد ومن الحادحتى الجهير، مسلوكة في مقطع واحدوطويل، يتلوّن في كل لحظة تغيراً في المقام والتعبير. فبينما يحمل اللحن ذلك المقطع إلى أذني، ينفّذ التآلف النغمي، دون فوضى، وعلى العديد من الآلات المتنوعة، مقطعين فثلاثة فأربعة أو خمسة، تساهم كلها في تدعيم قوة التعبير في الأول، وما الأجزاء المغناة سوى عدد مماثل من المؤدّين الذين قد استغني عنهم، حين يكون واضع السّمفونية إنساناً عبقرياً فيعرف كيف يسبغ طابعاً على غنائه.

وإن تعبير الموسيقى وعذوبتها ليتجلّيان تجلياً خاصاً في هدأة الليل.

ويتراءى لي أن الذين يبصرون، لا يستطيعون، لما تسبّبه لهم عيونهم من تشتّت، الإصغاء إليها وسماعها مثلما أصغي أنا إليها وأسمعها. فلماذا يبدو لي الإطراء الذي يوجهونه إليّ بشأنها فقيراً وضعيفاً؟ لماذا لم أتمكن من الكلام عنها قط على نحو ما أحس؟ لماذا أتوقف في منتصف خطابي وأنا أبحث عن الكلمات التي تصور إحساسي من غير أن أعثر عليها؟ أنا لا أستطيع مقارنة أثر الموسيقى إلا بالنشوة التي أشعر بها، حين أندفع، بعد غياب طويل، لأرتمي بين ذراعي أمي، فأفقد القدرة على الكلام. وترتعش أطرافي، فتسيل دموعي، وتتراخى ركبتاي، لأصير كأني على وشك أن ألفظ أنفاسي من المتعة.»

كانت على جانب عالي الرقة من الشعور بالحياء. وحين سألتها عن سبب ذلك قالت لي: «إنه من أثر أحاديث أمي. فقد كررّت على مسامعي مراراً أن رؤية بعض من أجزاء الجسد تغري بالرذيلة: وقد أجرؤ على البوح لك، بأني أدركت فحوى كلامها منذ وقت قصير، وربما استوجب ذلك أني لم أعد بريئة».

لقد توفيت نتيجة ورم في الأجزاء الطبيعية من أحشائها، فلم تواتها الجرأة البتة على التصريح بها.

كانت على درجة من النقاء المطلق في ثيابها وملابسها وجسمها لأنها لم تكن واثقة بما يكفي، ما دامت لا ترى، بأنها فعلت كل ما يلزم، لتوفر على الذين يبصرون التقزّز من عيب منفّر.

كان تعرف، حين يسكبون لها لتشرب، مقدار امتلاء كأسها من صوت الماء المنسكب، وتتناول الأطعمة بتبصّر ومهارة تثيران الذهول.

وتعمد أحياناً إلى الفكاهة بالوقوف أمام المرآة للتبرج، فتقلد كافة الحركات التي تقوم بها فتاة مغناج تستخدم سلاح الإغراء، فكانت تلك الإيمائية الماكرة على درجة من الواقعية تثير ضحكاً صاخباً.

كانت تحرص على تدريب الحواس المتبقية لديها، منذ نعومة أظفارها، فحققت مدى من النجاح يصعب تصديقه. فقد تعلمت باللمس، عن أشكال الأجسام، خصائص يجهلها في الغالب الذين يتمتعون بحدة البصر.

وكانت ذات سمع وشم مرهفين. فتعرف من ضغط الهواء وحال الطقس إن كان الجو غائماً أو صافياً. وتعرف إن كانت تمشي في ساحة أم في شارع، وهل هو شارع عادي أم مسدود، وهل المكان مفتوح أم مغلق، وهل هي في شقة واسعة أم في غرفة ضيقة.

إنها تقدّر اتساع المحيط من وقع قدميها أو تجاوب صوتها. وبعد أن تتجول في منزل ما ترسخ خارطة المكان في ذهنها إلى حدّ

إنذار الآخرين بالأخطار الصغيرة التي قد يتعرّضون لها فتقول: **حذار، فالباب هنا. منخفض أكثر من المعتاد، وأمامكم درجة هنالك.**

كانت تلاحظ في الأصوات تنوعاً ليس معروفاً لدينا، وحين تسمع شخصاً يتكلم أحياناً، يرسخ صوته في ذاكرتها أبداً.

كانت ضئيلة الإحساس بمفاتن الشباب وقلما صدمتها تجاعيد الشيخوخة. فتقول إنها لا تقيم اعتباراً أو تحسب حساباً إلا لمناقب القلب والفكر. وتلك هي أيضاً إحدى مزايا فقدان البصر، لا سيما بالنسبة للنساء. وتضيف: **لن يقوى رجل وسيم على سلب لبّي أبداً.**

كانت سليمة الطوية! فما أيسر خداعها، ولكم هو مُخْزٍ خداعها! أما أن يوهمها أحد لتعتقد بأنها وحيدة في المنزل، فذلك غدر لا يمكن أن يُغْتَفر.

وما كانت تعرف أي نوع من ضروب الرعب أو الهلع. ونادراً ما أحست بالسأم. فقد علّمتها الوحدة أن تكفي نفسها بنفسها. وتلاحظ أن الناس يلوذون بالصمت أثناء السفر، في وسائط النقل العامة، مع غروب الشمس. فتقول: **أنا لست بحاجة لأن أرى الذين أحبهم كي آخذ بأطراف الأحاديث معهم.**

أما الحكم الصائب واللطافة والمرح فهي التي تستهويها أكثر من دون ما عداها من المناقب.

وتتكلم قليلاً وتصغي كثيراً، فتقول: **إني أشبه الطيور. فأتعلم الشدو في الظلمات.**

وتثور ثائرتها، وهي تقارن ما تسمعه بين يوم وآخر، بسبب ما في أحكامنا من تناقض: فيبدو لها غير مجدٍ أن يجيئها الإطراء أو يوجَّه إليها اللوم من كائنات على تلك الدرجة من التقلّب.

علموها القراءة بحروف مقطّعة. كان صوتها جميلاً وإذا غنّت فبذوق وإتقان. وتمنّت لو تمضي حياتها في صالات العزف أو الأوبرا. لكن ما كان من شيء يضايقها مثل الموسيقى الصاخبة. وترقص حتى تأسر الألباب. وتعزف على الفيولا بإتقان كبير، فاجتذبت إليها تلك الموهبة عدداً من أبناء جيلها الشباب الذين قصدوها ليتعلموا الرقص ولا سيما رقصات الكدريل الدارجة.

كانت محبوبة أكثر من أخوتها وأخواتها جميعاً. فتقول: «هاكم ما تعود به عليَّ عاهتي: إنهم يتعلّقون بي عبر ما قاموا به حيالي من فنون الرعاية، وبسبب ما أبذل من جهود لأجيدها وأكون جديرة بها. يضاف إلى ذلك أن إخوتي وأخواتي لا يشعرون بالغيرة مني مطلقاً. ولو كنت مبصرة، لكان ذلك على حساب فكري وقلبي. ولدي الكثير من الأسباب لأكون طيبة! فإلامَ ستؤول حالي إذا ما فقدت ما أوحي به من اهتمام؟».

حين طرأ تدهور على ثروة والديها، كان حرمانها من معلميها الشيء الوحيد الذي أسفت له. لكن تعلّقهم بها وتقديرهم لها كان

كبيراً جداً، مما حدا بأستاذ الهندسة والموسيقى إلى التوسّل إليه كي تقبل دروسهما مجاناً، فكانت تقول لأمها: أماه، ما العمل؟ فهما ليسا من الموسرين، ويحتاجان لوقتهما كله.

علموها الموسيقى بحروف نافرة كانوا يضعونها فوق خطوط بارزة على وجه طاولة كبيرة. فتقرأ الحروف بيدها. ثم تنفذها على آلتها. فتعلمت في فترة قصيرة أن تعزف بشكل جزئي المقطوعة الأطول والأكثر تعقيداً.

لقد أتقنت مبادئ علم الفلك والجبر والهندسة. وتسألها أمها أحياناً، وهي تقرأ لها في كتاب الراهب لا كاي، إن كانت تستوعب ذلك. فتجيبها: **بكل يسر.**

كانت تزعم أن الهندسة هي العلم الحقيقي للعميان، لأنها تطبيقية إلى حد كبير، وأن المرء لا يحتاج لأي عون كي يواصل تدريبه. ثم تضيف: **يمضي المهندس طول حياته تقريباً مغمض العينين.**

شاهدت المصورات التي درست عليها الجغرافيا. كانت خطوط العرض وخطوط الطول مصنوعة من أسلاك الشبه. أما حدود الممالك والمقاطعات فمطرزة بخيوط من الحرير أو الصوف، تطريزاً رقيقاً أو سميكاً. وأما الأنهار والجداول والجبال فمحددة برؤوس دبابيس كبيرة أو صغيرة. وتدل على المدن أخيراً، وفقاً لحجمها وأهميتها، نقط من الشمع غير متساوية.

قلت لها يوماً: «يا آنسة، تخيلي مكعباً- إني أراه- تخيلي نقطة في وسط المكعب- تخيّلت - اسحبي من هذه النقطة خطوطاً مستقيمة حتى الزوايا، لا بأس، لقد قسَّمْتِ المكعب. فأضافت من تلقاء نفسها: إلى ستة أهرامات متساوية، لكل واحد نفس الوجوه وقاعدة المكعب ونصف ارتفاعه- هذا كله صحيح. ولكن أين رأيت ذلك؟ - في رأسي، مثلك أنت.»

أعترف بأني لم أدرك قط بوضوح كيف كانت تتمثّل الأشكال في ذهنها من غير تلوين. فهل تشكل ذلك المكعب عبر ذاكرة الأحاسيس اللمسية؟ وهل أضحى دماغها شبيهاً بيد تتحول تحتها ماهية المادة إلى حقيقة؟ أم أنه أنشأ على طول الأمد نوع من التطابق بين حاستين مختلفتين؟ ولِمَ ليس لمثل ذلك التكاتب من وجود لديّ، فلا أرى من شيء في ذهني ما لم أقم بتلوينه؟ وما الخيال لدى الأعمى؟ فليس من اليسر تفسير تلك الظاهرة كما يُظَنّ.

كانت تكتب بدبوس تغرزه في قطعة من الورق مشدودة على إطار يخترقه نصلان متوازيان ومتحركان، فلا يدعان فيما بينهما من فراغ سوى مسافة بين سطر وآخر. وكانت الكتابة نفسها تمثل جواباً، تعيد قراءته بالمرور بإصبعها على النتوءات الصغيرة التي خلقها الدبوس أو الإبرة على قفا الورقة.

كانت تقرأ كتاباً لم يطبع إلا على جانب واحد. وقد استخدم برول تلك الطريقة في الطباعة من أجلها.

وقد نشروا واحدة من رسائلها في **ميركور** التي صدرت في حينها.

لقد تمتّعت بالأناة على نسخ **الموجز التاريخي** للرئيس هينو بالإبرة، وحصلت أنا من والدتها، السيدة دوبلاسي، على ذلك المخطوط الفريد.

وأسوق هنا واقعة من الصعب تصديقها رغم شهادة أسرتها كلها. وشهادتي أنا وشهادة عشرين شخصاً ما زالوا أحياء يرزقون.

ذلك أنه إذا ما أخذنا مقطوعة من اثني عشر بيتاً إلى خمسة عشر، فأعطيناها الحرف الأول ثم عدد الحروف التي تصوغ كل كلمة، فإنها تتعرّف على المقطوعة المفترضة، مهما تكن درجة غرابتها. وقد جربت ذلك بنفسي على مقطوعات هذربها كوليه. فكانت تأتي أحياناً بعبارة ما تفوق في جودتها ما جاء به الشاعر.

كانت تدخل الخيط في ثقب الإبرة بسرعة، مهما تكن الإبرة دقيقة فتضع الخيط على سبابة اليد اليسرى وتضع الإبرة قائمة عليها ثم تسحبه من الثقب بعقفة رقيقة جداً.

وليس من نوع من أنواع الأشغال اليدوية إلا وقامت بتنفيذه. من هدب وسجف وشبكات ملأى أو متناظرة، تامة وبرسوم مختلفة وشتى الألوان. وربطات ساق وأساور وعقود من الخرز الدقيق، مثل حروف المطبعة. وليس من شك لدي في أنه كان لها أن تغدو منضدة

حروف في المطبعة ومن الطراز الأول: فمن يستطيع الكثير يستطيع القليل.

لقد أتقنت أحسن إتقان ألعاب الورق: المقلوبة والوسيطة والرباعية. فكانت تصف أوراقها بنفسها، وتميّزها برموز صغيرة خطّتها عليها، من غير أن يقدر الآخرون على اكتشافها، بالنظر كان أم باللمس. وكانت تغير بالمقلوبة، إشارات ورقة الآس، لا سيما الديناري والكبّة. أما الاهتمام الوحيد الذي يولونها إياه، فهو أن يسمّي كل لاعب الورقة التي يلعبها. وإذا كان شاب الكبة هو المهدّد في اللعبة، فقد كانت ترتسم على شفتيها ابتسامة خفيفة لا تقوى على احتوائها رغم معرفتها بأنها قد تكون فاضحة.

وكانت مؤمنة بالقدر، فتعتقد أن الجهود التي نبذلها للإفلات من قدرنا لا تساعدنا إلا على اقتيادنا إليه. فما كانت آراؤها الدينية؟ إني أجهلها. إنه سرّ ظلت تكتمه احتراماً لأم تقيّة.

لم يبق لي سوى أن أطلعك على أفكارها حول الكتابة والرسم والنحت والتصوير. فلا أعتقد أنه يمكن للمرء أن يحمل أفكاراً أكثر منها مقاربة للحقيقة. وهكذا فإني آمل أن يحكم استناداً إلى ذلك على الحديث التالي، والذي أنا فيه محاور. فهي التي تكلمت أولاً.

«لو خطّيتَ على كفي، بمسبر حاد، أنفاً أو فماً أو رَجُلاً أو امرأة أو شجرة، لما أخطأت في تمييز ذلك تمييزاً مؤكداً. بل لاأتوانى،

إذا ما كان الخط مضبوطاً، عن التعرف على الشخص الذي رسمت لي صورته: إن كفي تصبح بالنسبة لي مرآة حساسة. لكن الفارق كبير في الحساسية بين أرضية الرسم هذه وبين عضو البصر.

أنا أفرض إذن أن العين أرضية حية. ذات رقة لا متناهية. فالهواء يصيب الغرض. ويرتد من ذلك الغرض إلى العين، التي تستقبل ما لا نهاية له من انطباعات شتّى وفقاً لطبيعة الغرض وشكله ولونه، و ربما وفقاً لصفات الهواء المجهولة لدي والتي لا تعرفها أنت أكثر مني. ويرتسم لديكَ عبر التنوع في تلك الأحاسيس. ولو كان جلد كفّي مساوياً لرقة عينيك، لأمكن لي أن أبصر بيدي مثلما تبصر أنت بعينيك، وأتخيّل أحياناً حيوانات عمياء، لكنها ليست أقل إبصاراً.

- وماذا عن المرآة؟

- إذا لم تكن كافة الأجسام مرايا متماثلة. فمردّ ذلك عيب في بنيتها، التي تخمد من انعكاس الهواء. وإني لأتمسّك بهذه الفكرة، لا سيما أن الذهب والفضة والحديد والنحاس، تغدو وهي مصقولة، قابلة لعكس الهواء، بينما يفقد الماء العكر أو الجليد المخطط تلك الخاصية.

ذلك هو التنوع في الإحساس، وبالتالي التنوع في خاصية عكس الهواء في المواد التي تستخدمها، وهو الذي يميز الكتابة عن الرسم، والرسم عن الختم، والختم عن المنظر.

أما الكتابة والرسم والختم والمنظر من لون واحد، فهي رسم تدريجي.

- لكن حين لا يكون لدينا سوى لون واحد، فليس لنا أن نميز سوى ذلك اللون.

- إنها ظاهرياً أرضية قماش اللوحة، وسمك اللون. وطريقة المستخدم، هي التي تُدخل في انعكاس الهواء تنوعاً مطابقاً لتنوّع الأشكال. يبقى أن لا تسألني عن شيء من بعد، فلست بعالمة لأكثر من ذلك.

- وعبثاً أجهد نفسي لأعلّمكِ في ذلك الميدان المزيد.

لم أقل لك عن تلك العمياء الشابة، كل ما كنت سألاحظ لو عاشرتها أكثر واستجوبتها بذكاء. لكني أقول لك قول شرف إني لم أقل عنها من شيء إلا عن تجربتي.

توفيت في الثانية والعشرين. كانت ذاكرتها ضخمة وكان تبحرّها مساوياً لذاكرتها. فأي شأوٍ كانت ستقطع في ميدان العلوم لو أُعطِيَتْ عمراً أطول؟ كانت أمها تقرأ عليها التاريخ وكانت مهمة نافعة أيضاً وممتعة، إن لهذه أو لتلك.

حديث فيلسوف مع الماريشالة...

تنويه

وقوع هذا الحوار في نهاية هذه المجموعة[1] تبرّره أسباب عديدة. فديدرو يعرض في نهاية امتحانه النقدي للمسألة الأساسية حول وجود الخالق أو عدم وجوده. فإذا لم يكن موجوداً، تهاوى البناء الأونطولوجي[2] بكامله، لتغدو الأخلاق التجريبية القائمة على مفهوم السعادة، أمراً ممكناً.

أما السبب الثاني فهو حتماً تاريخ الكتابة. وهي تقع أثناء الإقامة الثانية في لاهاي، أي في صيف عام ١٧٧٤ وفقاً لرسالة ديدرو إلى كاترين الثانية بتاريخ ١٣ أيلول: «بدأتُ حواراً بين الماريشالة ... وبيني. إنّها عدة صفحات نصفها جاد ونصفها مرح.» وقد نشرت تلك الصفحات من قبل مايستر في منشورات نيسان وأيار ١٧٧٥ من المراسلات الأدبية. فانتشرت منها صياغة أولية بدءاً من عام ١٧٧٧ في مجموعة دعيت «أفكار فلسفية» بالفرنسية والإيطالية.

(١) يقع هذا النص، أصلاً، في نهاية مجموعة «ابن شقيق رامو»، الصادرة عن وزارة الثقافة عام ١٩٩٨ وهي أول ما ترجمنا من مؤلفات ديدرو. المترجم

(٢) المختص بعلم الكائن.

ثم أضيف إليها «حديث فيلسوف مع الدوقة ...» وهو مؤلف لاحق من وضع توماكروديلي. ونُقلت تلك الصيغة على التوالي من قبل فوكسيل ونيجون وبريير وأسيزا. وعدة نسخ منها مخطوطة. ونحن نعتمد، في آن معاً، نسخة منشورات فاندول التي تحمل اسم «دوق ودوقة» بدلاً من «ماريشال وماريشالة» ونسخة المراسلات الأدبية المحفوظة في المكتبة التاريخية لمدينة باريس، وهي تكمل الأولى.

أما عن هوية الماريشالة، فيبدو أن المعلقين على اتفاق فيما بينهم بشأنها. فيرى فوكسيل فيها، ونيجون من بعده، دوقة بروغلي التي استطاع ديدرو لقاءها أثناء المفاوضات التي أجراها لاسترجاع مجموعة كروزا، فالدوقة من أسرة كروزا. تزوجت عام ١٧٢٥ ورزقت بتسعة أولاد وكانت تقية جداً. ودراسة النص دراسة متأنية تبرر تحقيق الذاتية هذا، وتسمح بتحديد تاريخ اللقاء بين الفيلسوف والماريشالة عام ١٧٧١، حين كان ديدرو يتردد على قصر بروغلي: إذا كان الأمر هكذا فالمحادثة التي رويت بالتفصيل بعد ثلاثة أعوام جرت على وجه الدقة أثناء مرحلة التفكّر في الأخلاق وفي حالة الطبيعة. أما تاريخ الكتابة فقد جاء لاحقاً. وهذا ما يفسّر حيوية الحوار وخواءه ظاهرياً. وهو ما يتعارض بشكل متفرد مع رصانة الفكرة. وإنا لنعثر فيه على أفضل ما لدى فونتنيل، مزخرفاً بنكتة من المزاح، تذكّرنا بأسلوب موسيّه في مسرحيته

«إما أن يكون الباب مفتوحاً أو مغلقاً.»

«جاك شوييه».

لم أعد أذكر القضية التي كان عليّ أن أعالجها مع الماريشال . . . فقصدت قصره ذات صباح فوجدته غائباً . فأعلمت السيدة الماريشالة[1] بقدومي . إنها امرأة فاتنة . فهي جميلة وورعة مثل ملاك . فترى العذوبة مرتسمة على محياها ، أما رنّة صوتها وصفاء حديثها فعلى مستوى شكلها . كانت في حجرة زينتها . فقدمت لي كنبة فجلست وشرعنا نتحدث . وعلى أثر بعض من أقوالي ، التي دارت حول الهداية إلى السلوك القويم ، والتي باغتتها ، لأنها كانت تأخذ بالرأي القائل إنّ كل من ينكر الثالوث الأقدس رجل محتال ، ستقوده قدماه يوماً إلى المشنقة ، قالت لي :

-ألست أنت السيد ديدرو؟

- بلى ، يا سيدتي .

- إذن أنت الذي لا تؤمن بشيء؟

- أنا نفسي .

- بيد أنّ أخلاقَك أخلاقُ رجل مؤمن .

- ولم لا ، حين يكون المؤمن رجلاً مستقيماً؟

---

(١) تحمل المرأة الفرنسية لقب زوجها ، نبيلاً كان أم من ذوي المراتب العسكرية العليا : بارونة ، دوقة ، مركيزة ، جنرالة . . . - المترجم .

- وأخلاقك هذه، هل تضعها موضع التطبيق؟

- أبذل قصارى جهدي.

- حقاً! إذن أنت لا تسرق ولا تقتل ولا تنهب أبداً؟

- نادراً جداً.

- ماذا تكسب إذن من عدم إيمانك؟

- لا شيء قطعاً. لكن هل يؤمن المرء، يا سيدتي الماريشالة، لأنّ هنالك ما يكسبه؟

- لا أدري. لكن سبب المنفعة ليس ضاراً تأثيره على شؤون هذا العالم أو العالم الآخر. وينتابني شيء من الضيق بشأن جنسنا البشري المسكين: فنحن لسنا بأفضل حال. لكن قل لي، ألا تسرق أبداً؟

- كلا، شرفاً.

- إن لم تكن بسارق ولا قاتلاً، فوافقني القول على الأقل إنّك لست بمنطقي.

- ولم ذاك؟

- لأنه يتراءى لي، إن لم يكن لديّ ما آمل أو أخشى بعد أن أتلاشى من الوجود، لكان أمامي الكثير الكثير من الأشياء الصغيرة العذبة التي لن أحرم نفسي منها الآن ما دمت حيّة. وأصدقك القول إني أقرض الله يوماً بعد يوم.

- أنت تتخيلين ذلك .

- ليس ذلك تخيُّلاً قط ، إنه واقع .

- وهل يسعني أن أسألك عن تلك الأشياء الصغيرة التي ستسمحين لنفسك بها لو كنت كافرة؟

- كلا ، أرجوك ، فهذا أحد بنود اعترافي .

- أما أنا فأودع في صندوق خاسر .

- هذه وسيلة الصعاليك .

- هل كنت تفضلينني مرابياً؟

- بلى . فالمرء بوسعه أن يمارس الربا مع الله على قدر ما يشاء ، من غير أن يتسبّب في إفلاسه . وأنا أعرف أنّ المسألة دقيقة ، لكن ما الهمّ؟ وما دام الهدف بلوغ السماء ، مهارة أو عنوة ، فينبغي إدخال كل شيء في الحساب وعدم إهمال أي فائدة كانت ، لكن وا أسفاه! فعبثاً نجهد أنفسنا ، لأنّ ما نودع سيبقى على الدوام ضئيلاً جداً إذا ما قارناه بالمردود الذي ننتظره . أما أنت ، أفلا تنتظر شيئاً؟

- لا أنتظر شيئاً .

- إنه لأمر محزن جداً . وعليك أن توافق إذن على أنك امرؤ شرير أو مجنون .

- الواقع أني لست أدري ، يا سيدتي الماريشالة .

- أي حافز يدفع بالكافر لأن يكون صالحاً، مالم يكن مجنوناً؟ اتلهَّف كثيراً لمعرفة ذلك.

- وأنا سأقوله لك.

- أكون ممتنّة لك.

- ألا تعتقدين أنّ بوسع المرء أن يُولد سعيداً لدرجة كبيرة تجعله يلقى متعة كبرى في فعل الخير؟

- أعتقد ذلك.

- وأن يكون تلقّى تربية ممتازة تقوّي لديه الميل الطبيعي نحو البرّ؟

- بكل تأكيد.

- وأن التجربة تجعلنا نقتنع، بعد أن تتقدم بنا السن، ونضع في اعتبارنا كل شيء، أنّ سعادة المرء في هذا العالم تتمثّل في أن يكون شريفاً لا لئيماً؟

- نعم حقاً. لكن كيف يكون المرء شريفاً حين تجتمع المبادئ السيئة لديه، مع الأهواء، لدفعه نحو هوّة الشرّ؟

- نحن متناقضون، وليس ماهو أكثر شيوعاً من أن يكون المرء متناقضاً.

- يا للأسف. ولسوء الحظ أقول كلا. فنحن نؤمن، ونتصرف على الدوام كأننا لا نؤمن.

- أما بدون إيمان، فنتصرف تقريباً كأننا نؤمن.

- حبذا ذلك. لكن ما هو الضير في أن يكون لدى المرء دافع إضافي لفعل الخير هو الدين ويكون الكفر نازعاً إضافياً عن فعل الشر.

- لا ضير من ذلك إذا كان الدين حافزاً لفعل الخير وكان الكفر حافزاً لارتكاب الشر.

- ألديك من شك في ذلك الصدد؟ ألا يتمثّل جوهر الدين في المناوأة الدائمة لهذه الطبيعة البشرية القبيحة والفاسدة، ويتمثّل الكفر في تركها على مكرها عن طريق تحريرها من الخوف؟

- سيقودنا هذا، يا سيدتي الماريشالة، إلى نقاش طويل.

- وأي ضير في ذلك؟ فالماريشال لن يعود لتوّه، ويحسن بنا أن نتحدث حديث عقل من أن نتناول قريبنا بقول السوء.

-عليّ أن أستأنف الأشياء من الأعلى قليلاً.

- من أعلى ما تشاء على شرط أن أفهم كلامك.

- إن لم تفهميني فالغلطة غلطتي.

- هذا لطف منك. لكن ينبغي أن تعلم أني لم أقرأ قط سوى سواعيّتي، وأني لم أهتم يوماً إلا بتطبيق كلام الإنجيل وإنتاج الأطفال.

- إنهما واجبان قمتِ بأدائهما على أفضل صورة.

- كلامك صحيح عن الأطفال: لقد رأيتَ ستة يحيطون بي ويسعك بعد أيام أن ترى السابع في حضني. لكن ابدأ حديثك.

- سيدتي الماريشالة، هل من خير في هذا العالم ليس له من سيئة؟

- كلا.

- إذن كيف تعرِّفين الشر والخير؟

- الشرّ هو ما فيه من سيئات أكثر من الحسنات، والخير على العكس، فيه حسنات أكثر من السيئات.

- هل تتكرّم سيدتي الماريشالة فتتذكّر تعريفها للخير والشر؟

- سوف أتذكّر. لكنك تدعو ذلك تعريفاً.

- أجل.

- إنه إذن من الفلسفة؟

- أنت ممتازة.

وأنا قلت شيئاً من الفلسفة؟

- وعلى هذا فأنت مقتنعة بأن في الدين من المحاسن أكثر من المساويء، ولهذا فأنت تسمينه خيراً؟

- أجل.

- لا يخامرني، من ناحيتي، أي شك في أنّ وكيلكم يسرقكم

عشيّة عيد الفصح أقل بقليل مما يفعل غداة الأعياد، وأنّ الدين لا يحول بين وقت وآخر دون عدد من الشرور الصغيرة، أو يأتي بعدد من الخيرات الصغيرة.

- وشيئاً فشيئاً يشكّل ذلك مبلغاً.

- لكن أتحسبين أنّ الويلات الرهيبة التي تسبّب بها الدين في أزمنة سابقة، والتي سوف يسبّبها في أزمنة لاحقة قد عوّضت عنها تلك الحسنات المهلهلة تعويضاً كافياً؟ تذكّري أنه ولّد الكراهية الأشد عنفاً بين الأمم ولا يزال يديمها. فليس من مسلم إلا وتخيّل أنه يؤدي عملاً يرضي الله ورسوله الكريم، إذا ما أباد جميع المسيحيين، الذين ليسوا من جانبهم أكثر تسامحاً على الإطلاق [1]. تخيّلي أنّه ولّد في المقاطعة الواحدة انقسامات نادراً ما أُطفئت بغير الدم، ولايزال يديمها. وهذا تاريخنا لا يقدّم لنا سوى أمثلة حديثة العهد جداً وفائقة في شؤمها. فكري في أنه ولّد، وما يزال، أشدّ الأحقاد وأكثرها رسوخاً بين المواطنين داخل المجتمع وداخل الأسرة بين الأقرباء. لقد قال المسيح إنه جاء ليفرّق [2] الزوج عن زوجته والأم عن أولادها والأخ عن أخته والصديق عن صديقه، ولم تتحقّق نبوءته إلا بأمانة مفرطة.

---

(١) قول ديدرو سابق بقرنين ونصف لما جرى ويجري في نهاية القرن العشرين من الفليبين حتى ارتنتة مروراً بالهند وأفغانستان وفلسطين والعراق ولبنان وقبرص وجمهوريات البلقان وروسيا وغيرها... وغيرها... (م).

(٢) انجيل لوقا: الفصل ١٢ - الآية ٥١، ... ٥٣.

- تلك هي التجاوزات حقاً، لكنه ليس الواقع.

إنه الواقع ما دامت التجاوزات لا تنفصل عنه.

- وكيف ستبرهن لي على أنّ تجاوزات الدين لا تقبل الفصل عن الدين؟

- بمنتهى اليسر. إذا ما ارتأى امرؤ كاره للبشر أن يتسبّب في شقاء الجنس البشري، فهل يستطيع أن يبتكر ما هو أفضل من الإيمان بكائن يعجز دونه الفهم، ولم يستطع البشر يوماً أن يتفقوا حوله، ويعلّقون عليه أهمية أكبر من حياتهم؟ أما الآن فهل من الممكن أن نفصل عن مفهوم الألوهية عدم الفهم الأكثر عمقاً والأهمية القصوى؟

- كلا.

- إذن اخرجي بالنتيجة.

- استنتج أنها فكرة ليست خالية من الأهمية في أذهان المجانين.

- وأضيفي أن المجانين كانوا الأكثر عدداً على الدوام وسوف يظلون كذلك أبداً، وأن أشدهم خطورة، الذين يتولى الدين صنعهم والذين يجيد مخربو المجتمع تحقيق أكبر فائدة منهم حين تسنح الفرصة.

- لكن لابد من وجود شيء يثير الفزع في نفوس الناس بصدد الأعمال الطائشة التي تفلت من صرامة القوانين. أما إذا دمّرتَ الدين فماذا تستبدل به؟

- حين لا أجد من شيء أضعه مكانه، أكون قد وفّرت على الأقل أحد أشكال التعصّب الرهيبة. هذا من غير أن نذكر أن الآراء الدينية لم تكن يوماً الأساس الذي قامت عليه الأخلاق الوطنية في أي عصر من العصور ولدى أي أمة من الأمم. فالآلهة التي كان يعبدها قدماء الإغريق وقدماء الرومان، وهم من أشرف الناس على الأرض، كانت من السوقة الأكثر تهتكاً. فواحد مثل جوبيتير ينبغي أن يحرق حياً. وواحدة مثل فينوس ينبغي أن تُحتجز في مشفى المجانين. أما عطارد فينبغي وضعه في مصح بيسيتر [1].

- أو تعتقد بأنه ليس من فارق قطعاً بين أن نكون مسيحيين أو نكون وثنيين. وأننا وثنيين، لسنا بأدنى وأننا مسيحيين، لسنا بأعلى؟

- الحق أنني مقتنع بذلك. بل أقول إننا سنكون أكثر ابتهاجاً بعض الشيء.

- ذلك غير ممكن.

- ولكن، يا سيدتي الماريشالة، أهنالك مسيحيون حقاً؟ أنا لم أرهم قط.

- ولي أنا تقول ذلك، لي أنا؟

- كلا، يا سيدتي، ليس لك أنت، بل أقوله لواحدة من

(١) مصح للمعجزة ومرضى العقول عند منطقة قال دومارن بفرنسا في القرنين السابع عشر والثامن عشر. م

جاراتي وهي امرأة نزيهة وتقيّة مثلك، وتظن نفسها مسيحية، بصدق وحسن نية، كأفضل ما في العالم، على نحو ما تظنين أنت.

- فجعلتَها ترى أنها على ضلال.

- بلحظة واحدة.

- وكيف فعلتَ ذلك؟

- فتحت العهد الجديد الذي طالما استخدمَتْه، لأنَه كان مهترئاً جداً. وقرأت لها الخطبة على الجبل. وبعد كل فقرة كنت أسألها:

«هل تفعلين هذا، وذاك، ثم ذلك أيضاً؟» ثم ذهبت إلى أبعد من هذا. إنها حسناء، وهي لا تجهل ذلك على الرغم من شدّة ورعها. فبشرتها شديدة البياض، ومع أنها لا تعلق أهمية قصوى على هذه المزية الضئيلة، فإنها لا تأنف من سماع الإطراء بصددها. وهي ذات نحر من أجمل ما يمكن أن يكون، ولا ترى أي ضير في أن يلحظ الناس ذلك، على الرغم من أنها شديدة التواضع.

- شرط ألا يعرف ذلك من أحد سواها هي وزوجها.

- أعتقد أن زوجها يعرف ذلك أفضل من أي شخص آخر. لكنه ليس بكافٍ، بالنسبة لامرأةٍ تفاخر بعظمة مسيحيتها، فقلت لها: «ألم يرد في الإنجيل أنّ من يشتهي امرأة قريبة قد اقترف الزنا في قلبه؟»

- فأجابتك بنعم؟

- فقلت لها: «والزنا الذي يُقْتَرَف في القلب ألا يُدين بكل تأكيد مثل الزنا الذي يقترف ضمن شرط أفضل؟»

- فأجابتك أيضاً بنعم.

- فقلت لها: «وإذا أدين الرجل على فعل الزنا الذي اقترفه في قلبه، فما هو حال المرأة التي تدعو كافّة الذين يحيطون بها إلى اقتراف تلك الجريمة؟» فتسبّب لها هذا السؤال الأخير بالضيق.

- فهمت. ذلك أنها لم تكن تحجب تماماً ذلك النحر الذي هو من أجمل ما يمكن أن يكون.

- هذا صحيح. ولقد أجابتني إنّها مسألة عادة. كأنها عادة مألوفة أن يدعى المرء مسيحياً وأن لا يكون كذلك. وإنه لا ينبغي أن تلبس المرأة على نحو يثير السخرية، كأنّ هناك مجالاً للمقارنة بين سخرية صغيرة بائسة وبين إدانتها الأبديّة لها ولقريبها. وإنها تَدَعُ للخيّاطة مسألة اختيار ثيابها، كأن لم يكن من الأفضل تغيير الخيّاطة على أن تتخلى عن دينها. وإن ذلك بناء على رغبة زوجها، كأن الزوج على درجة من الغباء تجعله يفرض على زوجته تناسي الاحتشام وتناسي واجباتها، وأن مسيحية حقيقية ينبغي أن تمضي في طاعة زوج مهووس حتى التضحية بطاعة الله وازدراء تهديدات المخلّص.

- كنت أعرف من قبل تلك الأقوال الصبيانية كلها. وربما كنت سأقولها مثل جارتك. غير أننا سنكون، أنا وهي، على نفس الدرجة من سوء النية ولكن كيف كان موقفها من بعد تأنيبك ذاك؟

- فيما كنت في اليوم التالي لحديثنا، وكان يوم عيد، صاعداً إلى بيتي صادفت جارتي الحسناء الورعة نازلة من بيتها في طريقها لحضور القداس.

- لابسة كالعادة؟

- لا بسة كالعادة. فتبسّمت أنا وتبسّمت هي ومررنا أحدنا بجوار الآخر دون أن نتبادل الكلام. سيدتي الماريشالة. إنها امرأة شريفة. مسيحية، وورعة! فمن بعد هذا المثال، وألف مثال غيره من النوع ذاته. أتساءل بحسن نية، أيّ تأثير واقعي يسعني أن أنسبه للدين حول الأخلاق؟ لا تأثير أبداً تقريباً. وهذا أفضل.

- كيف هذا أفضل؟

- أجل، يا سيدتي، إذا مرّ بخاطر عشرين ألفاً من سكان باريس أن يكيّفوا سلوكهم تكييفاً صارماً مع خطبة الجبل.

- لا بأس سيكون هنالك عدد من النحور الجميلة محجوبة أكثر.

- وعدد كبير جداً من المجانين سيجعل قائد الشرطة يحار في أمرهم لأن مصحاتنا العقلية لن تعود كافية. وتحتوي الكتب المستوحاة

نوعين من الأخلاق: النوع الأول عام ومشترك بين كافة الأمم وكافة العقائد فيتّبع بشكل تقريبي. والآخر خاص بكل أمة وكل عقيدة، فيؤمنون به ويعظونه في المعابد وينادون به في البيوت لكنهم لا يتبعونه على الإطلاق.

- وما مصدر هذه الغرابة؟

- إنه ليستحيل إخضاع شعب لنظام لا يلائم سوى بعض الرجال المكتئبين الذين صاغوه وفق طبعهم. وواقع الأديان كواقع الأنظمة الرهبانية التي تتراخى كلها مع مرور الزمن. فهي أشكال من الجنون التي لا يسعها الصمود في وجه الاندفاع الدائم للطبيعة التي تستعيدنا تحت لوائها. أسعي ليصير مال الأفراد وثيق الصلة بالمال العام وأن لا يقوى المواطن على إلحاق الضرر بالمجتمع دون أن يضرّ بنفسه أيضاً، وأمنّي للفضيلة مكافأتها مثلما أمّنتِ للرذيلة عقوبتها. واعملي على إلغاء أي نوع من التمييز في العقيدة، حتى لتؤدي الأهلية في أي شرط وجدت، إلى أعلى المناصب في الدولة ولا تحسبي من بعد حساباً للأشرار، باستثناء عدد ضئيل من ذوي الطبيعة المنحرفة التي لا يمكن لشيء أن يقوّمها والتي تقود إلى الشر. سيدتي المارشالة، الإغراء فائق القرب والجحيم فائق البعد: فلا تتوقعي شيئاً يستحق العناء من مشرّع حكيم فيهتمّ بذلك، أو من نظام آراء غريبة لا ينخدع به سوى الأطفال. نظام يشجع على الجريمة

عن طريق سهولة الغفران، ويبعث بالمذنب طالباً عفو ربه عن إهانة ألحقها بالإنسان، ويحطُّ من قدر نسق الواجبات الطبيعية والأخلاقية، بجعله تابعاً لنسق من الواجبات الخيالية.

- إني لا أفهمك.

- سأوضح فكرتي. لكن يبدو أن تلك هي عربة السيد الماريشال قد جاءت في الوقت المناسب لتمنعني من قول حماقة ما.

بل قل، قل حماقتك، فلن أسمعها. لقد تعوّدت ألا أسمع إلا ما يروقني.

فاقتربت منها وقلت لها هامساً: «سيدتي الماريشالة، اسألي الأسقف في أبرشيتكم عن هاتين الجريمتين وأيّهما أكثر بشاعة: التبول في إناء مقدس أم تلطيخ سمعة امرأة شريفة؟ سوف ترينه يرتعد هولاً من الأولى صارخاً من خرق المقدّسات. والقانون المدني الذي يسجل في أحسن الأحوال أخذ علم بالنميمة، بينما يعاقب على خرق المقدّسات بالموت حرقاً، ينتهي إلى تشويش الأفكار وإفساد النفوس.

- أعرف غير امرأة تتولاها الوساوس من أكل الدسم يوم الجمعة، بينما... كنت على وشك أن أقول حماقة أنا أيضاً.

تابع حديثك.

- لكن يا سيدتي، لا بد لي من أن أتحدث إلى السيد الماريشال.

- لحظة أخرى، ثم نتوجه لرؤيته معاً.

- أنا لم أضع في حسباني أمر إقناعك. إنّ واقع الدين شبيه بواقع الزواج. فالزواج الذي تسبّب في شقاء كثير من الآخرين، كان مصدر سعادتك وسعادة السّيد الماريشال، فلقد أحسنتما صنعاً حين تزوجتما أنتما الاثنين. والدين الذي صنع ويصنع وسوف يصنع الكثير من الأشرار، قد جعلك أفضل أيضاً، فيحسن بك أن تحافظي عليه. فأنت تستعذ بين أن تتخيلي إلى جوارك وفوق رأسك كائناً عظيماً قادراً، يراك تسيرين في الأرض. وهذه الفكرة تثبّت خطاك. فواصلي، يا سيدتي، التمتع بذلك الضامن المعظَّم لأفكارك، بذلك الشاهد، ذلك المثل الأسمى لأفعالك.

- ليست لديك، على ما أرى، عادة التبشير.

- قطعاً.

- وهذا ما يزيد في تقديري لك.

- أنا أدع لكل امرئ أن يفكر على طريقته، بشرط أن يدعوني أفكّر على طريقتي. كما أن المتعوّدين على التخلص من تلك الأفكار المسبقة ليسوا بحاجة لأن نعظهم أبداً.

- أتعتقد أن الإنسان يستطيع الاستغناء عن الإيمان بالأباطيل؟

- كلا، مادام جاهلاً ووجلاً.

- لا بأس، أباطيل وأباطيل. فمثلنا كمثل غيرنا.

- لاأظن ذلك.

- اصدقني القول، ألست تأنف من أنك لن تكون شيئاً من بعد موتك؟

- أفضّل كثيراً أن أكون موجوداً، على الرغم من أني لاأدري لماذا يقوم كائن بعد أن استطاع أن يجعلني شقياً دونما سبب، فيلهو بجعلي أشقى مرتين.

- وإذا بدا لك الأمل في حياة قادمة معزّياً وعذباً، على الرغم من هذا العائق، فلم تنتزعه منّا؟

- ليس لديّ هذا الأمل، لأن الرغبة لم تنتزع مني بطلانه البتة، غير أني لاأنتزعه من أحد. وإذا استطاع المرء أن يؤمن بأنه سوف يرى حين لاتعود له عينان، ويسمع حين لاتعود له أذنان، ويفكّر حين لايبقى لديه دماغ، ويحب حين لا يبقى له قلب ويشعر حين لاتظلّ لديه حواس، ويوجد حين لايكون له من مكان، وأنه سيكون شيئاً بلا بعد ولا مكان، فأنا موافق.

- أما هذا العالَم فمن الذي صنعه؟

- أنا أسألك عن ذلك.

- هو الله.

- وما هو الله؟

- هو روح.

- إذا كانت الروح تصنع المادة، فلم لاتصنع المادة الروح؟

- ولِمَ تصنعها؟

- لأنــي أراها تفعل ذلك كل يـوم. أتعـتقـدين أن الحـيوانات لها أرواح؟

- أعتقد ذلك بكل تأكيد.

- أتستطيعين أن تقولي لي ماذا يحلّ، على سبيل المثال، بروح أفعى البيرو بينما هي تجف معلّقة داخل مدخنة، ومعرّضة للدخان طيلة عام أو عامين متواليين؟

- ليحلّ بها ما تريده هي، فبم يهمني ذلك؟

- ذلك أن سيـدتي الماريشـالة لاتدري أن تلك الأفـعى المدخّنة تُبعث فتولد مجدّداً.

- لاأصدق شيئاً من ذلك.

- غير أن الذي يؤكّده رجل حاذق، إنّه بوغيه[1] Bouguer.

- صاحبك الرجل الحاذق قد كذب.

- وماذا لو كان ما قال حقاً؟

- سأكون مستعدة للاعتقاد بأنّ الحيوانات ماكنات.

- والإنســان الذي ليس إلا حـيـواناً أكـثـر كـمـالاً بقليل من آخر.. لكنّ السيد الماريشال.

---

(١) فلكي وفيزيائي وعالم رياضيات: «في البيرو أفعى يمكن بعد أن تجفّف بالتدخين، أن تعود إليها الحياة بتعريضها لبخار رطب ودافىء».

- سألقي عليك سؤالاً أيضاً، هو السؤال الأخير. هل أنت مرتاح البال في جحودك؟

- لايسع المرء أن يكون مرتاحاً أكثر.

- ومع ذلك فقد تكون مخطئاً.

- قد أكون مخطئاً؟

- كل ما تعتقد أنه خطأ سيكون صحيحاً. وأنت سوف تدان يا سيد ديدرو، وإنّه لأمر رهيب أن يدان المرء. أما أن يظلّ يحترق إلى الأبد فتلك فترة طويلة.

- كان لافونتين يعتقد بأننا سنألف النار فنصير مثل السمك في الماء.

- أجل، أجل، لكن صاحبك لافونتين عاد إلى جادة الصواب في اللحظة الأخيرة. وأنا في انتظارك عند تلك اللحظة.

- لن أكون مسؤولاً عن شيء إذا ما فقدت رشدي. أما إذا كانت نهايتي بأحد تلك الأمراض التي تدع للإنسان المحتضر كامل قواه العقلية، فلن أكون مضطرباً في لحظة انتظارك إياي، أكثر من اللحظة التي ترينني فيها.

- هذه الجرأة تربكني.

- بل أرى جرأة أكثر لدى المحتضر الذي يؤمن بقاضٍ قاسٍ يزن حتى أفكارنا الدفينة جداً، والذي يمكن للإنسان الأكثر استقامة أن

يخسر في ميزانه بفعل غروره، ما لم يرتعد لحسبانه أنّ كفته شالت. لو كان أمام ذلك المحتضر أن يختار بين أن يبيد أو أن يتقدم إلى تلك المحكمة، فإن جرأته ستربكني كثيراً اذا مال نحو الخيار الأول، هذا إن لم يكن أكثر حمقاً من رفيق سان برونو، أو أكثر انتشاء بأهليته من بوهولا.

- قرأت حكاية شريك سان برونو، لكني لم أسمع قط بصاحبك بوهولا.

- هو كاهن يسوعي في مدرسة بينسك في ليتوانيا، ترك ساعة موته صندوقاً مليئاً بالمال مع بطاقة بخطه وتوقيعه.

- وتحمل البطاقة؟

- كانت تحمل العبارات التالية: «أرجو زميلي العزيز المؤتمن على هذا الصندوق، أن يفتحه من بعد أن أصنع معجزات. فما فيه من مال سوف يستخدم للإنفاق على دعوى تطويبي[1]. وقد أضفت إليها بعض المذكّرات الأصيلة لإثبات فضائلي والتي يمكن أن ينتفع بها الذين سيتولون كتابة قصة حياتي[2].»

- ذلك يميت من الضحك.

---

(١) التطويب: هو اعتبار السلطة البابوية أحد الأموات في رتبة الأبرار، تليها رتبة التقديس.

(٢) قتل الأب اليسوعي أندريه بوهولا في بيتسك على أيدي القوزاق عام ١٦٥٧, جرى تطويبه عام ١٨٥٣، ثم تكريسه قديساً عام ١٩٣٨.

- بالنسبة لي أنا، يا سيدتي الماريشالة، أما بالنسبة لك؟ فربّك لا يتقبل المزاح.

- أنت على حق.

- سيدتي الماريشالة، من السهولة بمكان أن يرتكب المرء خطيئة مميتة بحق شريعتكم.

- أوافق على كلامك.

- والعدالة التي تقرر مصيرك بالغة التشدّد.

- ذلك حق.

- وإذا ما أيقنتِ بوحي دينك في هذا الصدد حول عدد الأبرار، وجدتِه ضئيلاً جداً.

- غير أني لست جانسينية، فأنا أنظر إلى الأيقونة من وجهها المشرق. ودم يسوع المسيح يغطّي في نظري مساحة كبرى. وإنه حسب رأيي لأمر بالغ الغرابة أن تكون للشيطان الحصة الفضلى مع أنه لم يسلّم ابنه للموت.

- وهل تُدينين سقراط وفوسيون واريستيدس وكاتون وتراجان وماركوس اوريلوس؟

- أفٍ لهذا! فالوحوش المفترسة وحدها يمكن أن تفكّر بذلك.

فالقديس بولس قد قال إنّ كل امرئ يحاكم وفق الشريعة التي عرفها، وإن القديس بولس لعلى حق.

- أما الكافر، فوفق أية شريعة سوف يحاكم؟

- إنّ وضعك لمختلف بعض الشيء. فأنت واحد من أولئك السكان الذين حاقت بهم اللعنة في كل من خُور زين [1] وبيت صيدا، الذين أغمضوا عيونهم دون النور الذي كان يضيؤهم، وأصمّوا آذانهم كي لا يسمعوا صوت الحقيقة الذي كان يكلّمهم.

- سيدتي الماريشالة، أولئك الخورزينيّون والبيت صيداويون كانوا أناساً لا نظير لهم إلا هنالك، لو كانوا أحراراً في أن يؤمنوا أولاً.

- لقد رأوا من المعجزات ما من شأنه المزاودة على المسوح [2] والرّماد، فيما لو جرت في صور أو في صيداء.

- ذلك أنّ أبناء صور وصيدا كانوا رجالاً أذكياء، وأمّا أبناء خورزين وبيت صيدا فكانوا مجرد حمقى. لكن هل الذي صنع الحمقى سوف يعاقبهم لأنّهم حمقى؟ قبل قليل رويت لك قصة، وتحدوني رغبة لأن أحكي لك حكاية.

---

(1) جاء في انجيل متى: «عندئذ طفق (السيد المسيح) يقرّع المدن التي أجرى فيها أكثر عجائبه، لأنها لم تتب، قائلاً: ويل لك يا خورزين! ويل لك يا بيت صيدا! لأنه لو صنع في صور وصيدا ما صنع فيكما من العجائب، لتابتا من قديم، في المسوح والرّماد.»

(2) كان النساك والمتعبّدون يلبسون المسوح الخشنة ويذرون على رؤوسهم الرماد كطقس من طقوس العبادة. -المترجم.

- احكِ لي حكايتك.

- كان مكسيكي شاب... لكن السيد الماريشال؟

- سوف أبعث بأحدهم وراءه. طيّب، ما حكاية المكسيكي الشاب؟

- ... يتجول يوماً على شاطئ البحر. بعد أن تعب من عمله. فشاهد لوحاً من الدف، طرفه يلامس الماء وطرفه الآخر مستند إلى الشاطئ. فجلس فوق ذلك الدف، ثم سرح ببصره من هناك إلى المدى الشاسع المنبسط أمامه وهو يقول في نفسه: «ليس أصدقُ مما تهرف به جدتي في قصتها عن أناس لا أدري من هم، جاؤوا لست أدري في أي زمان، من بلد لا أدري ما هو، فنزلوا هنا قادمين من منطقة تقع فيما وراء بحارنا. لكن ليس من منطق سليم فيما تروي. وحتى لو كان فيها منطق سليم، ألست أشاهد البحر يتاخم السماء؟ وهل يسعني أن أؤمن بما هو معاكس لشهادة حواسي، بخرافة قديمة مجهولة التاريخ، يقوم كل واحد برصفها على هواه، وهي ليست سوى نسيج من ظروف بلُهَاء يتخاصمون بشأنها وتنشب بينهم النزاعات؟ «وفيما كان يناقش الأمور على ذلك النحو، أخذت المياه المضطربة تهدهده فوق الدف فنام. ثم اشتدت الريح وهو نائم فرفع الموج الدف الذي كان يرقد فوقه. وهكذا أبحر صديقنا الشاب المجادل.

- وا أسفاه! بل إنها صورتنا: فنحن جالسون وكل واحد فوق لوحه. وتهب الريح فيحملنا الموج.

- حين استيقظ كان قد أضحى بعيداً عن شاطئ القارة. فمن ذا الذي بوغت لوجوده في وسط البحر؟ إنّه صاحبنا المكسيكي. ومن ذا الذي كانت المباغتة لديه أكثر وأكبر؟ إنّه هو أيضاً، لا سيّما وقد غاب عنه منظر الشاطئ الذي كان يتجوّل عليه قبل هنيهة فقط. وبدا له البحر مقارباً للسماء من كل جانب. عندئذ ساورته الشكوك حول الاحتمال في أنه قد أخطأ وأنّ الريح إذا لم تحوّل وجهتها فقد تحمله إلى الشاطئ ما بين القوم الذين طالما حدثته جدّته عنهم.

- غير أنك لم تذكر قلقه بكلمة واحدة.

- لم يشعر بأيّ قلق. فقد قال في نفسه: «وما همني كل ذلك، فحسبي أن أبلغ الشاطئ. لقد جادلت جدال امرئ طائش. هذ صحيح. غير أني كنت صادقاً مع نفسي. وهذا جلّ ما يمكن أن يُطلب مني. وإذا لم يكن التمتع بالذكاء فضيلة فإن الافتقار إليه ليس بجريمة.» في تلك الأثناء واصلت الريح هبوبها وواصل الرجل والدفّ الإبحار. وبدأ الشاطئ المجهول بالظهور: فبلغه فنزل عليه.

- سوف نلتقي هناك يوماً يا سيّد ديدرو.

أعني ذلك، يا سيدتي الماريشالة ولسوف تريني دوماً، أينما كان المكان، طرباً كل الطرب في الإعراب لك عن إعجابي. وما كاد

يتـرك الدفّ ويضع قـدمـه على الرمل، إذ هو بشـيخ وقـور واقف بجواره. فسأله عن المكان وعمن يشرّفه أن يتحدث إليه. فأجابه الشيخ: «أنا ملك هذه المنطقة» فسجد الشاب على الفور. فقال له الشيخ: «انهض. لقد انكرتَ وجودي- ذلك صحيح- ووجود إمبراطوريتي- ذلك صحيح.

- وأنا أسامحك لأنّي أنا الذي أرى أعماق القلوب، وقد قرأت في أعماق قلبك أنّك حسن النيّة. أما القسم المتبقي من أفكارك وأفعالك فليس بريئاً كذلك». من ثمّ طفق الشيخ الذي كان يمسك به من أذنه، يذكّره بكافة ذنوب حياته، ولدى كلّ بندٍ كان المكسيكي الشاب ينحني ثم يدق على صدره ويطلب المغفرة. أما هنا، يا سيدتي الماريشالة، فضعي نفسك لحظة مكان الشيخ وقولي لي ما كنت ستفعلين. هل كنت ستمسكين بذلك الشاب الأحمق من شعره، وتتلذّذين بجره فوق الشاطئ إلى الأبد؟

- الحقيقة لا.

وإذا ما قام واحد من أولادك الستّة الوسيمين هؤلاء، من بعد أن هرب من دار والديه ومن بعد أن ارتكب حماقات عديدة، بالعودة إلى البيت تائباً تمام التوبة؟

- أنا، كنت سأهرع للقائه فأضمّه بين ذراعيّ وأغسله بدموعي. لكن والده الماريشال لن يأخذ المسألة بكل ذاك الهدوء.

- إنّ السيد الماريشال ليس وحشاً كاسراً.

- الأمر يحتاج لكثير.

- قد يستوجب ذلك شيئاً من الإلحاح، لكنه سوف يصفح.

- بكل تأكيد.

- لاسيما إذا اعتبر أنه من قبل أن يعمل على ولادة ذلك الطفل كان يعرف حياته كلها، وأن معاقبته على أغلاطه ستكون دون أية فائدة إنْ بالنسبة له هو، أم بالنسبة للمذنب، أو بالنسبة لأشقائه.

- الشيخ والسيد الماريشال اثنان.

- أتقصدين أنّ السيد الماريشال خير من الشيخ؟

- معاذ الله! بل أريد أن أقول إذا لم يكن حكمي أنا هو حكم الماريشال، فمن الممكن ألا يكون حكم الماريشال هو حكم الشيخ.

- آه، يا سيدتي، إنّك لا تشعرين بما يترتّب على هذا الجواب. فإما أن يكون التعريف العام للعدالة ملائماً على حد سواء لك وللسيد الماريشال ولي وللمكسيكي الشاب وللشيخ، وإمّا أن لا أعود أدري ماهي، فأجهل كيف يستطيع المرء أن يروق في عيني الشيخ أو لا يروق.»

كنا هنا حين أقبل من يعلمنا أن الماريشال في انتظارنا. فمددت يدي للسيدة الماريشالة التي قالت لي: «إنّ هذا ليسبّب دواراً في الرأس، أليس كذلك؟»

- ولم ذاك حين يكون الرأس سليماً؟

- أسلم شيء في النهاية أن يسلك المرء كأن الشيخ موجود.

- حتى حين لا يؤمن بذلك.

- أما حين يؤمن بذلك، فلا ينبغي الإفراط في الاعتماد على طيبة قلبه.

- إن لم يكن ذلك هو الأكثر تهذيباً، فهو الأسلم على الأقل.

- بالمناسبة، لو طُلِب إليكَ أن تعرض مبادئك على قضاتنا، فهل تصرخ بها؟

-أبذل ما وسعني لأوفّر عليهم عملاً قبيحاً.

- آه، ياللجبان! وإذا كنت على وشك الموت فهل تستسلم لطقوس الكنيسة؟

- لن أتوانى عن ذلك.

- أفٍ! يا للمرائي القبيح!»

صدر في سلسلة
آفاق ثقافية (الكتاب الشهري)

عـام ٢٠٠٣

عنوان الكتاب	المؤلف	المترجم	الشهر
١. العرب وتجربة المأساة	صدقي إسماعيل	-	أيار
٢. من المجهول إلى مايا - كتاب المستحيل	ع. آل شبلي	-	حزيران
٣. مقام العقل عند العرب	قدري حافظ طوقان	-	تموز
٤. فتاوى كبار الكتّاب والأدباء في: - مستقبل اللغة العربية - نهضة الشرق العربي وموقفه إزاء المدنية الغربية	مجموعة من الكتّاب	-	آب
٥. بابلو نيرودا	ألبيرتو كوستي	صالح علماني	أيلول
٦. مختارات	عمر أبو ريشة	-	تشرين ١
٧. الأوراق «مقالات مختارة في الأدب والفن والاجتماع»	د. إبراهيم الككيلاني	-	تشرين ٢
٨. ٤٢ راكباً ونصف	فارس زرزور	-	كانون ١

عـــام ٢٠٠٥

عنوان الكتاب	المؤلف	المترجم	الشهر
٢١. بحث في الحرية	جون ستيوارت ميل	–	كانون٢
٢٢. مقالات مختارة في الأدب الإنكليزي	مجموعة مؤلفين	محمد بدران	شباط
٢٣. مختـــارات	جرجي زيدان	–	آذار
٢٤. دفاع عن الأدب	جورج ديهاميل	محمد مندور	نيسان
٢٥. آلام السيد معروف	غائب فرمان طعمة	–	أيار
٢٦. البدائع – الجزء الأول	د. محمد سليم سالم	–	حزيران
٢٧. فلسفة الحضارة عند هربرت ماركيوز	إيمان حميدان	–	تموز
٢٨. الانتباه والنجاح المدرسي	كريستوف بوجون + كريستو فكيرو	وجيه أسعد	آب
٢٩. كل شيء الآن كل شيء	فيرنر شبرنغر	د.شاكر مطلق	أيلول
٣٠. مفخرة أبي،ذكريات طفولة	مارسيل بانيول	بسام بشور	تشرين١
٣١. الشعور المأساوي بالحياة	ميغيل ده أونامونو	علي إبراهيم أشقر	تشرين٢
٣٢. النظرية النقدية (مدرسة فرنكفورت)	آلن هاو	ثائر ديب	كانون١

عـام ٢٠٠٦

عنوان الكتاب	المؤلف	المترجم	الشهر
٣٣. شـاعرات العـرب فـي الجاهلية والإسلام	بشير يموت	–	كانون٢
٣٤. الحضارة في الميزان	أرنولد توينبي	أمين محمود الشريف	شباط
٣٥. رامبـــو	صدقي إسماعيل		آذار
٣٦. الفلســـفة موضوعات مفتاحية	جوليان باجيني	أديب يوسف شيش	نيسان
٣٧. اسطنبول الذكريات والمدينة	أورهان باموك	عبد القادر عبد اللي	أيــار
٣٨. قواعد النقد الأدبي	لاسل آبركرومبي	د. محمد عوض محمد	حزيران
٣٩. غرغانتوا	فرانسوا رابليه	أنطون حمصي	تموز
٤٠. بانتاغرونيل	فرانسوا رابليه	أنطون حمصي	آب
٤١. النظرة العلمية	برتراند رسل	عثمان نويه	أيلول
٤٢. آلام	نديم محمد		ت١
٤٣. الهوى والشباب	بشارة الخوري (الأخطل الصغير)		ت٢
٤٤. انتصار إراسموس ومأساته	ستيفان تسفايغ	محمد جديد	ك١

عـــام ٢٠٠٤

عنوان الكتاب	المؤلف	المترجم	الشهر
٩. يا ليل	خير الدين الأسدي	–	كانون ٢
١٠. حضارة الطين	شاكر مصطفى	–	شباط
١١. أبيات ريفية	عبد الباسط الصوفي	–	آذار
١٢. نيج « ثلج »	مكسنس فيرمن	عبود كاسوحة	نيسان
١٣. بدوي الجبل «مختارات»	بدوي الجبل	–	أيار
١٤. مسرح عربي قديم (كراكوز)	عادل أبو شنب	–	حزيران
١٥. الأدب والموقف القومي	محيي الدين صبحي	–	تموز
١٦. تاريخ الحضارة الإسلامية	ف. بارتولد	حمزة طاهر	آب
١٧. تاريخ الحضارة الأوروبية	كلود ديلماس	كوليت حبيب	أيلول
١٨. التربية عند العرب	خليل طوطح	–	تشرين ١
١٩. الجمهورية المثلى	زكي الأرسوزي	–	تشرين ٢
٢٠. بعض قضايا الفكر العربي المعاصر	جلال فاروق الشريف	–	كانون ١

عبود كاسوحة

من مواليد القصير/حمص، ١٩٣٨، مجاز في الأدب الفرنسي من جامعة دمشق ١٩٦٣، ويحمل ديبلوم في التربية ١٩٦٥، عمل في الترجمة الصحفية والتحرير لثلاثة أعوام، وتميّز بكتابة المقالة.

لم تنقطع علاقته بالصحافة طيلة عمله مدرّساً للفرنسية حتى التقاعد عام ١٩٩٨.

ترجم كافة الأجناس الأدبية والفكرية والفلسفية: الرواية، المسرحية، النقد الأدبي، الأعمال الفلسفية.. لكنه يزهو خصوصاً بأنه كان أوّل من ترجم بعض أعمال «ديدرو»: **ابن شقيق رامو، جاك المؤمن بالقدر، رسالة حول العميان، حلم دالامبير**، وقريباً **مفارقة الممثل**.. ومعظم الترجمات صدر عن وزارة الثقافة.

قلّدته السفارة الفرنسية بدمشق في صيف ٢٠٠٧ وساماً بعد صدور مرسوم عن الحكومة الفرنسية ووزير التعليم والبحث بتسميته: «**فارساً من رتبة السعف الأكاديمية، تقديراً لجهوده في نشر الثقافة الفرنسية**».

لم ينقطع المترجم عن صقل لغته العربية، التي يهواها حتى العشق، مؤمناً بأنها الكنز الذي لن ينضب، بعد أن تنضب آخر قطرة نفط من الأرض العربية.

هذا الكتاب

حين نقول «موسوعة»، يتبادر إلى الذهن مشهد مجموعة كبيرة من المجلدات الضخمة، تحتوي كافة المعارف الإنسانية. فما عساه يتبادر إلى ذهننا إن قلنا: «إن ديدرو موسوعي»؟ واقع الحال أنَ هذا الرجل العظيم تميَز عن كافة معاصريه، فلاسفة عصر الأنوار: جان جاك روسو، وفولتير، ومونتسكيو.. وقد دخلوا التاريخ، بأنه ظل في السياسة : ظلَ راهناً وحاضراً بفكره وما تناول طول حياته من مواضيع شملت كافة الأجناس الأدبية والفكرية والفنية والعلمية والفلسفية...، المعاصرة واللاحقة. وهذا ما يفسَر كيف أن الاهتمام به ما انفكَ في تصاعد متواصل منذ قرابة قرن ونصف.

ما جاء في رسالة حول العميان يكفي ليجعلنا نرى في ديدرو باحثاً متقصياً شديد الدقة، وعالماً نفسياً نافذ البصر، ومجدداً عبقرياً.

أما ما قال في الدين فما يزال راهناً بعد قرنين ونصف ويزيد. وله نبوءات مدهشة جاءت الاكتشافات العلمية لتثبت صحتها...

فما أحوجنا للاطلاع على شيء مما قال !..



السعر (٥٠) ل.س